مراجعات

ملحــق شهــري تصـدره وزارة الأوقــاف والشــؤون الدينيــة

رجـب 1443هـ - فبرايـر 2022م

الصفحــة الأولــى...

هـلال الحجـري

من القصائد المتصلة بالعرب وثقافتهم قصيدة بعنوان «مقاهي دمشق» للشاعرة البريطانية ليتشيا إليزبيث لاندن Letitia Elizabeth Landon (1802-1838). وهي شاعرة وروائية غزيرة الإنتاج، ظهرت موهبتها الأدبية في سن مبكرة حين كانت في التاسعة من العمر حيث نشرت أولى قصائدها «روما» في الجريدة الأدبية Literary Gazette في 11 مارس 1820. يقول عنها جلينيس بايرون في قاموس أكسفورد Oxford Dictionary of National Biography :» «يتميز شِعْر لاندن بالعفوية، ولا ريب أنَّ رغبتها في الإيحاء بأنها شاعرة مُرْتَجَلة، إضافة إلى متطلباتها المالية وشعبيتها الكبيرة، كل ذلك دفعها إلى إنتاج كمية غزيرة من الشِّعْر في فترة قصيرة من الزمن». أما قصيدتها «مقاهي دمشق»، فقبل أن تظهر في أعمالها الشعرية، نشرتها ضمن حولية أدبية تعد من «كُتُب الهدايا» التي برزت في عشرينات القرن التاسع عشر في بريطانيا، وكان عنوان حولية ليتشيا لاندن Fisher's Drawing Room Scrap Books، وقد ظهر منها ثمانية مجلدات. تتميز هذه الحولية بقصائد تصف أمكنة مختلفة في العالم مصحوبة برسومات مذهبة فاخرة.

«**مقاهي دمشق**» هي القصيدة الثانية في حولية 1837، وتوضّح نَقْشًا لتجَمّع على ضَفاف نهر بَرَدَى لرجالٍ مُعَمَّمين يجلسون على السجاد ويُدخّنون الشيشة ويتحدثون تحت أضواء خافتة. تنص الحاشية السفلية للقصيدة على ما يلي: «ربما تكون المقاهي من النوع الذي يظهر في هذا النقش أعظم رفاهية يمكن للغريب أن يراها في دمشق. تنتشر الحدائق والأكشاك والنوافير والبساتين حول كل عاصمة شرقية، لكن المقاهي التي يحتضنها نهر سريع وتغمرها أمواجه تعتبر ميزة لهذه المدينة القديمة؛ فقد شُيِّدتْ على هيئة تسمح بدخول النسيم واستبعاد أشعة الشمس».

(مقاهي دمشق)

هُناكَ الليلُ قد نَفَحا ** بِرَوْضِ دِمَشْقَ مُتَّشحا
وحيث النَّهرُ مِنْ بَرَدَى ** تَهْدْهَدَ صافيًا مَرِحا
فأين العُودُ إنْ رَفَّتْ ** به الأوتارُ أو صَدَحا؟
كَنَهْرٍ هامَ في طَرَبٍ ** وهَبَّ نسيمُه فَرِحا
هناك الناسُ في حُلُمٍ ** ومَنْ في رُوحه سَبَحا
يُحيط بهِمْ شَذَى عَبِقٌ ** مِنَ الدُّخَانِ إنْ جَمَحا
بِتُوتِ البُنِّ نَكْهَتُهُ ** أو العنَبِ الذي سُفِحا
وغليونٍ به كَرَزٌ ** يُزيل الغَمَّ والتَّرَحا
يُغَرْغِرُ في تَدَفُّقِه ** بماءٍ باردٍ رَشَحا
حُزَيْرانٌ يُعَطِّرُه ** بوَرْدٍ فاحَ وافْتَضَحا
كذا الأحلامُ يَسْكنُها ** خَيَالُ الشَّرْقِ إنْ شَطحا
أقاصي الأرضِ تَسْحَرُنا ** سَوادُ عُيونِها جَرَحا
هيَ الأحلامُ تُسعِفُنا ** لنَعْبُرَ نَهْرَها سُبَحا
عسى الفِرْدَوْسُ تُؤْوينا ** بهذا الحُلْمِ إنْ سَنَحا!

hilalalhajri@hotmail.com

روسيا 0502 : اليوتوبيا والتنبؤات
مجموعة مؤلفين

العلاقات الاجتماعية الرقمية
أوليفييه مارتان وإريك داجيرال

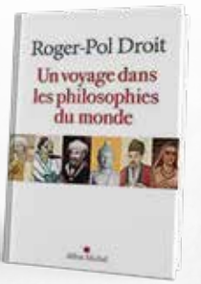

رحلة في فلسفات العالم
روجي-بول دروا

الانقسامات السياسية والفوارق الاجتماعية
تأليف جماعي

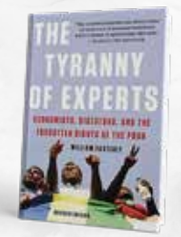

استبداد الخبراء
ويليام إيسترلي

العقلانية
ستيفن بينكر

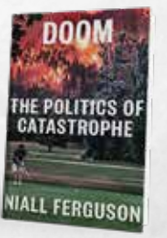

المصير المحتوم
نيل فيرغيسون

مواقع البناء في التاريخ..
فيديريكو رامبيني

إسرائيل والمجتمع الحريدي
شوكي فريدان

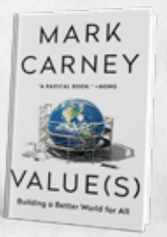

القيم: بناء عالم أفضل للجميع
مارك كارني

عدم المساواة وسوق العمل
شارون بلوك وبنيامين هاريس

إصــدارات عــالميــة جـديـدة

الصفحــة الأخيــرة

رحلة في فلسفات العالم

روجي-بول دروا

محمد الشيخ *

كان قد ختم البيروني ترجمته لكتاب في اليوغا نقله عن الهنود بالقول: «سأعمل، بإذن الله، كتاباً في حكاية شرائعهم، والإبانة عن عقائدهم، والإشارة إلى مواضعاتهم وأخبارهم، وبعض المعارف في أرضهم وبلادهم». وكان أن وفى بوعده، فألف كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة».

لكنه تلافى إطلاق لفظ «فلسفة» و«فلاسفة» على أنظار الهنود وعلى أرباب هذه الأنظار؛ مفضلا عليهما لفظي «حكمة» و«حكماء»، وما ذكر لفظي «الفلاسفة» و«الفلسفة» اللهم إلا مقرونين باليونان وببلادهم؛ معتبرًا أنَّ «اليونان فازوا بالفلاسفة». لكن البيروني نفسه سرعان ما أقصاه بعض ممن وضع ترجمات فلاسفة الإسلام واسترخص عليه أن يستحق اسم «فيلسوف»؛ فكان أن قال عنه البيهقي في كتابه «تاريخ حكماء الإسلام»: «ولم يكن الخوض في بحار المعقولات من شأنه، وكل مُيسر لما خلق له»، وتبعه الشهرزوري في هذا. والحال أن هذه الحادثة تلخص لوحدها معضلة الكتاب الذي بين أيدينا وبغيته.

ومغزى الحادثة والكتاب معًا: تُرى من ذا من الشعوب أنتج «فلسفة» وأنشأ «فلاسفة»؟ وهل بمكنة أمة بعينها أن تحتكر صناعة «الفلسفة» وتخريج «الفلاسفة»؟ يقول مؤلف الكتاب. الباحث الفلسفي الفرنسي الشهير روجي بول دروا (١٩٤٩-) . إنه، شأنه في ذلك شأن مجايليه من الذين درسوا الفلسفة، ما تعلم فتيلا، خلال تكوينه الفلسفي، عن الهند والصين والتبت، كما ظل في جهالة عمياء بالفلاسفة اليهود والمُسلمين، وما تمرس إلا بنصوص فلاسفة الغرب. وما اكتفى أساتذته بالصمت، وإنما زادوا على ذلك بالإنكار. وفي سن الثلاثين، وقد بات أستاذ فلسفة، حدث له أن اكتشف نصوص علماء منطق بوذيين؛ في مبسوطات هندية في المنطق والميتافيزيقا. ثم تعلم شيئا من السنسكريتية، وقرأ للعديد من المتخصصين، وتردد عليهم، سعى إلى أن يُعيد توجيه مساره. وهنا سرعان ما انقدح في ذهنه سؤال: لماذا تمت المواربة عليه وحجب كل هذه الكنوز عنه حتى وإن ما كان الأمر عمدا وإنما توارثه أساتذته؟ ما أصل هذه المواربة؟ وما سرها؟ شغلته هذه التساؤلات حوالي ١٥ سنة، وخصص كتابين للحفر في هذا الانغلاق: الأول كتاب «نسيان الهند: فقدان ذاكرة فلسفي (٢٠٠٤)». وقد سعى إلى أن يفهم فيه كيف أنَّ المذاهب الفلسفية الهندية، وبعد أن كانت شغفت بها أوروبا في القرن ١٩، وجدت نفسها في القرن ٢٠ منسية. والثاني كتاب: «عبادة العدم: الفلاسفة وبوذا» (٢٠٠٤) نزع فيه إلى إيجاد مفتاح منعطف النسيان هذا الذي أنشأ بوذية أوروبية متخيلة حولت بوذا إلى فزاعة عدمية تخبرنا عن حال أوروبا أكثر مما تنبؤنا بحال البوذية. ثم جاء كتاب: «صمت بوذا ومسائل هندية أخرى» (٢٠٠٤)، وهي دراسات على هذه الشاكلة. ثم كان تأليفه لمختصر عن تاريخ الفلسفة العالمي (٢٠١٠)، وإشرافه على مصنفين ضخمين: نصوص مختارة من الفلسفات غير الغربية (٢٠٠٩)، وهو عبارة عن منتخبات من أعمال فلسفية هندية وصينية وتبتية وعبرية وعربية وفارسية ...

من المنغلق إلى المنفتح

يدافع المؤلف على دعوى ويمثل لها بأمثلة. فأما الدعوى فتصور للفلسفة يمكن أن ينعت بأنه «منفتح» يرى أن ما يحدد الفلسفة، من حيث هي فلسفة، ما كان لسانا معينا ولا ثقافة بعينها، لا ولا حتى كوكبة مسائل محددة، وإنما هو، قبل كل شيء، طريقة في التساؤل مخصوصة، ومنهج عقلاني في إعادة النظر في المعتقدات المشتركة وفي المفاهيم المتداولة. إذ أن أوبة الفكر على نفسه مسائلا ذاته إنما هو الأمر الحاسم. والحال أن هذا التصور للفلسفة يتعارض مع التصور الشائع في الغرب الذي يعتبر الفلسفة اعتبارا قصريا إقصائيا، ويعدها شأنا «منغلقا» يسيجه اللسان. اليوناني والألماني بالأساس. والمسائل المتداولة (الوجود، الحقيقة ...) والمؤسسات (الأقسام الجامعية، التخصصات، مراكز البحوث ...). ويحفر المؤلف في جذور تصور الفلسفة الموصدة. وعلى عكس ما يُعتقد يجد أنه ما كان قناعة قديمة راسخة في تاريخ الفلسفة، وإنما هو قناعة طارئة بنت القرن العشرين. إذ الأصل إنما هو فكرة «الفلسفة المنفتحة». ويسعى صاحب الكتاب إلى أن يفصلنا عن تاريخ الفلسفة الحادث، وأن يصلنا بتاريخها الراسخ. والذي عنده أن الفلاسفة القدامى ما عُهد عنهم أنهم كانوا يعرفون فكرة أن لا فلسفة اللهم إلا فلسفة الإغريق، وأبدا ما ادعوا أنهم وحدهم من أبدع فكرة الفلسفة، بل كانوا يجهلون فكرة التفرقة بين «الفلسفة» و«الحكمة». وقد جروا على إطلاق لفظ «الفلاسفة» على الكهنة المصريين والمجوس الكلدانيين والزهاد العراة الهنود والحكماء العبرانيين والكهان الجوليين القدامى. ولنا أن نعود إلى أول عبارة يفتتح بها ديوجينيس اللائرتي. وهو أشهر مؤرخي الفلسفة من القدامى. كتابه الشهير: «سير مشاهير الفلاسفة ومذاهبهم وأقوالهم»: «يقال إن الفلسفة بدأت لدى البرابرة = يعني الذين لا يتحدثون باللسان اليوناني، وليس المتوحشين». ولا غرابة أن يستمر هذا التقليد في العصر الوسيط وعصر النهضة والعصر الكلاسيكي إلى حدود عصر الأنوار. فلا أحد في العصر الوسيط، مثلا، كان يخطر بباله أن ينكر على المفكرين العرب أو اليهود لقب «الفلاسفة»، على الرغم من الصراع العقدي المستعر. كما أن مبسوطات تاريخ الفلسفة تشهد بذلك إذ كانت تعم ولا تخص. أما اليوم، فقد اختفت الإحالة على الفلسفات غير الغربية في المؤلفات المدرسية. وهو ما يرى فيه المؤلف مثالا ناذرا عن «ردة ثقافية» بحيث أن ما كان الغرب يعلّمه بين ١٨٣٠ و١٨٥٠ بات أرفع مما صار يوصله في القرن ٢١. ويا للمفارقة!

ويوجه المؤلف التهمة في هذا الانغلاق الطارئ إلى «الهاءات الثلاثة»: هيجل وهوسرل وهايدجر الذين تبنوا جميعا العبارة: «لسنا نجد من فلسفة اللهم إلا عند الإغريق»؛ بما يعني أن الفلسفة بدعة إغريقية استثنائية محفوظة، وأنهم ورثتها الوحيدون؛ بحيث توجد الفلسفة فحسب في أثينا وروما وبرلين وباريس ولندن ونيويورك، وتنعدم في بيناريس وبكين وأورشليم وبغداد. قال هيجل: «لدى الهنود (...) كل شيء غفوة حلم «ولا يوجد عندهم فكر». وقال هوسرل: «فحسب لدى الإغريق نعثر على انشغال حيوي وكوني وعلى جماعة من الفلاسفة والعلماء جديدة الجدة». وقال هايدجر: «إنما الفلسفة يونانية في كينونتها الحميمية». وتعلة هذه الدعوى أن العاقلية اليونانية مميزة لا نظير لها قطعت مع أفق الأساطير والمعتقدات الإغريقية. وهي عاقلية ما ورثها سوى الغرب. ورد المؤلف أن هذه العاقلية الصرفة أمر متوهم، وأن القول بها يشي بنزعة طهرانية خلوصية، وأنه أبدا ما وُجدت عاقلية صرفة، وإنما العاقلية تكون دوما ممزوجة: نصوصها توجد مهجنة بنصوص أخرى وحيانية وبتقاليد فناء صوفية وبحكمات شرقية وغربية. والأمر أولى أن ينطبق على الفلسفات الغربية: فلا خلوص للفلسفة عند أفلاطون وأبيقورس وأفلوطين، من القدامى، ولا عند أوغسطينوس وتوما الأكويني، من الوسطويين، ولا حتى عند اسبينوزا وباسكال، من المحدثين. ومما طم الوادي على القرى الإرث الأنواري الذي صور للناس أن لا فلسفة إلا وهي ناقدة للدين النقد الجذري، مع أنه في قلب الفكر الديني تتولد الفلسفة التي لا تعادي الدين بالضرورة وإنما تحفظ المسافة النقدية معه. وزادت العولمة التأحيدية التنميطية. التي هي تغريب مقنّع. من فداحة تصور أن لا فلسفات ثمة اللهم إلا فلسفة واحدة، وأن سواها سراب ووهم، وأن الفلاسفة لا يستوطنون إلا منطقة واحدة، ولا يتكلمون اللهم إلا ألسن أوربا.

ويسعى المؤلف إلى مراجعة تعريف «الفلسفة» الذي قُدَّ على مقاس الإغريق: لا فلسفة ثمة اللهم إلا الفلسفة الإغريقية، كما يهدف إلى مراجعة تسوية الفلسفة: الفلسفة هي هي في كل مكان، كينونة بلا بينونة. وتتمثل مراجعته في دعواه أن

الفلسفة أشكال ثقافية متباينة، وألوان من التفكير المنطقي الصارم والنقدي متعددة، تتناول أمورا أساسية دائرة على المعرفة وعلى الوضع البشري. فلا مساغ إلى تضييق واسع، أو الحجر على مختلف. إنما كل الأمم تفلسفت بمقدار. وليس يعني هذا أن سائر الفلسفات سواء، وإنما تحتكم هي إلى جدل المماثلة والمباينة. «لا فلسفة اللهم إلا الفلسفة الإغريقية»: تلك أسطورة سائرة إلى نهايتها في نظر المؤلف. وقد طفقت تتآكل بفضل جهود بذلت لإدخال أعمال فلاسفة غير أوربيين إلى مقررات الدراسة حتى بأوربا نفسها: تشوانغ تسو، أب الطاوية، نجاجونا، شيخ الجدل البوذي، ابن سينا، المازج المسلم بين الطب البدني والطب الروحي، ابن ميمون، الفيلسوف الطبيب العبري ...

والحال أن الكتاب يعتبر مدونة رحلة يدعم قارئه على استغوار «فلسفات العالم»: محاورها الفكرية، طائفة من مؤلفيها الأساسيين، بعض من مفاهيمها الكبرى. وهو يأخذ بيد القارئ عن طريق اقتراح نصوص ومؤلفات وأدوات لقراءة الفلسفات الهندية والصينية واليهودية والإسلامية ... غايته أن ينجز «سفرا في الرؤوس» أكثر من سفر في المؤلفات والمذاهب والمدارس ...

فصول الكتاب الخمسة

في بداية الفصل الأول، وهذه سُنَّة سوف يتبعها في سائر الفصول، يضع المؤلف خريطة ظهور وضمور التأمل الهندي من حواشي الفيدا إلى أفول البوذية الكلاسيكية مرورا بما يسميه العصر الذهبي للفلسفات الهندية (بين ٣٠٠ و٨٠٠ م). ويقسم فصله إلى مقاربات تدرجية، على نحو ما سوف يلتزم به في كل الفصول الأخرى من النظر الإجمالي إلى النظر التفصيلي، تتجول بنا في حدائق المدارس الفلسفية الهندية التي تطورت وتخلصت وتكملت شيئا فشيئا في تفاعل مع نقد البوذيين لها. وقد أجمعت على أن ثمة ست وجهات نظر تنشأت عنها ستة مذاهب فلسفية تألفت في ثلاث مجموعات مثنى مثنى؛ فضلا عن مذاهب جانية ومادية وبوذية. على أن الأصل فيها هو الوحدة لا الانقسام. ومن الملفت للنظر أن هذه المذاهب، وعلى عكس التقاليد الغربية، لا تعزى إلى أسماء بعينها، وإنما هي أشبه شيء تكون بمذاهب من غير أعلام؛ إذ ما كان يهم في الهند هو ما قيل لا من قال. فضلا عن أن مظان هذه المدارس إما «مختصرات» أو «مبسوطات». وسمة ثالثة أخرى هي أن هذه المدارس تنهض على أساس واحد. الفيدا. بوصفها تصورا موحدا للعالم: ثمة خلف مظهر العالم المتنوع مخبر واحد، ولا يتم التحرر من آسار المتعدد اللهم إلا بالتعرف على الواحد. ثم سرعان ما تتفرع المدارس من غير أن تقوى على أن تتعارض في طرق قدد، وإنما يتم تقديمها على أنها «وجهات نظر». «دراسنا». ومقاربات متباينة لحقيقة واحدة. وإذ تنشأ المناظرات بينها، فإنها لا تخرج الخصم من الملة الفلسفية، وإنما تعده قد زاغ وهو يطلب الحق. هذا وينهي المؤلف فصله بجامع مفاهيم الفلسفة الهندية. الأدياسا والأدفياتا والأنومانا والأيمان والبرهمان والدراسنا والدارما والموكشا والنرفانا والسمسرا. وبعرض مقروءات للمبتدئ والمنتهي.

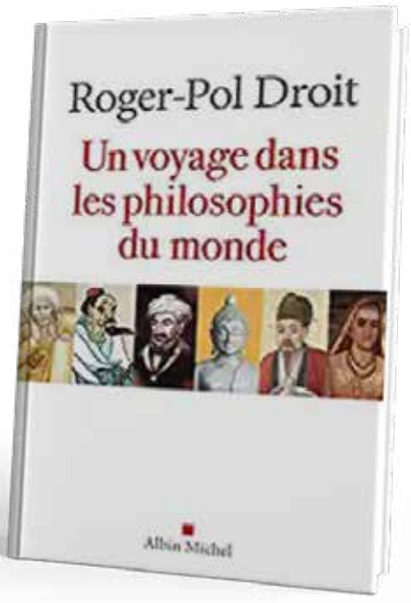

ويخصص المؤلف الفصل الثاني إلى الفلاسفة الصينيين. وهو يرى أن ما يميز المدارس الفلسفية الصينية، بالأساس، إنما هو بعدها العملي؛ إذ تشهد سائر جدالات هذه المدارس نقاشا مستفيضا حول طيبة الإنسان وشريته، وإحسان المرء وإساءته، ولطفه وقسوته؛ لا سيما حين يتعلق الأمر بالحاكم. وقد وضع المؤلف ضربا من القاموس الموجز لهذه الفلسفة ضم مفاهيمها المفتاحية؛ شأن «الداو» أو «الطاو» الذي يعني النهج الذي على الإنسان اتباعه في الحياة، كما يعني «مجرى الأمور» الطبيعي الذي يلزم أن يقتفيه الإنسان في مسلكه الحياتي. و«الفاجا» التي تفيد تحكم قائد الآلة في آلته من أجل تحقيق الطاعة بناء على المصلحة والخيفة. و«الفان» الذي يفيد معنى الأوبة؛ إذ كل ما من شأنه أن ينطلق فأمره أن يعود في دورات، كما من شأن الحكيم أن يؤوب إلى طبيعتنا بالانفكاك من آسار الروابط الاجتماعية الشديدة الوطأة. و«اللي» الذي يعني ضربا من السكينة والروية. و«التيان» الذي يفيد التغير الدائم ودورة الدورات ...

وفي الفصل الثالث يتجول بنا المؤلف في «رؤوس الفلاسفة البوذيين» (الهنود والصينيون والتبتيون واليابانيون) آخذا بيدنا في هذا البحر اللجاج من النصوص والشطحات والاستدلالات والنظريات والممارسات التي لا تقبل أن تُختزل، والتي يعسر ضمها في «جوامع كلم». وبنوع من التسمح في العبارة يمكن القول إن ما يوحد بينها هو القول بالسبيل المعتدل بين سبيلين: الدعة والبساطة، التوتر والاسترخاء، الحق والباطل، الإثبات والنفي. على أن المؤلف يرى أن «البوذية» بدعة أوربية لا حقيقة لها في آسيا. وحقيقة تعاليم بوذا أنها تتغيا الاستشفاء والتحرر أكثر مما تتغيا المعرفة؛ على أن المعرفة قد تفيد في تبديد الأوهام التي تتنشأ عن الجهالة. وبالجملة، الكلمة الفيصل فيها اتباع النهج الأوسط القائم على النفي المزدوج: لا هذا ولا ذاك، وهو طريق وليس مذهبا. وكعادته يورد المؤلف عصب مفاهيم فلسفة بوذا وأتباعه ذات الأصل السنسكريتي والتبتي والصيني والياباني؛ نظير «الأليافيجانا» التي تفيد الوعي، و«الشان» أو «الزن» الذي يعني تركيز الذهن والخشوع، و«الكوان» الذي يفيد الأحجية التي تلقى على المريد بغاية إيقاظه من خموله، و«الدياماكا» التي تفيد طريق الوسط ...

وفي الفصلين الرابع والخامس، يتناول المؤلف الفلسفتين العبرية والعربية. ويذكرنا، بدءا أن الفكر اليهودي إنما نشأ قبل الفكر الإغريقي، وأنه كان على النقيض من الفلسفة بدءا، وأنه أعلى من شأن الزمن والتاريخ، وجمع بين القول والفعل والحكمة والمحبة مما فرقه الإغريق. لكن هذا الفكر اغتنى بهذه الفوارق؛ لا سيما بين الوحي التواراتي والفلسفة اليونانية، واللسان العبري واللسان العربي. ثم توجه هذا الفكر نحو البعد الصوفي متمثلا في القبالة. وقد نبه المؤلف إلى أهم أعلام هذا الفكر الفلسفي من فيلون الإسكندري إلى ما سماه «مجرة ابن ميمون» مرورا بسعديا الفيومي وبابن جبيرول وبيهوذا اللاوي ... وافتتح فصله الخاص. في رؤوس الفلاسفة العرب والمسلمين. باقتباس من الباحث الفرنسي كرستيان جامبي لخص فيه تصوره لهذه الفلسفة: «كلا؛ ما كان هؤلاء الفلاسفة فلاسفة على الرغم من الإسلام، ولكن بدءا منه ومعه وفيه وبه». ثم خصص فقرات من هذا الفصل لما سماه «إسلام الأنوار»، متنقلا بين الكندي والفارابي والغزالي. «مضاد الفيلسوف». وابن رشد. «آخر العظماء». وبعدها تناول السهروردي وإشراقيته. وفي هذا كله ذكرنا بالجانب الإبداعي عند هؤلاء الفلاسفة نابذا أطروحة كونهم مجرد مقلدة ومحشية على فلسفة الإغريق.

على سبيل الختم

في خاتمة كتابه يثير المؤلف سؤالين: الأول يتعلق بما كان غائبا في هذه «الرحلة»؛ أي «الفلسفة الإفريقية» و«الفلسفة الأمريكية العتيقة». والثاني بوقوفه عند حدود القرن السادس عشر الميلادي وعدم تجاوزه في عرض «فلسفات العالم» إلى العصر الحاضر. وفي ما يخص السؤال الأول، يرى أن ما منعه من عرض الفلسفات الإفريقية والأمريكية القديمة إنما هو طابعهما الشفاهي؛ إذ كانت فلسفات نقدية شفوية، ولا فلسفة عنده إلا الفلسفة التي تنتج مكتبة. وفي ما يخص السؤال الثاني، يقر المؤلف أن «تغريب العالم» أدى إلى تهجين فلسفات العالم وأفقدها بعضا من هويتها. ولا يريد هو أن يختم كتابه إلا بتوجيه أربع نصائح إلى المقبل على دراسة «فلسفات العالم»: أن يحفظ لكل فلسفة كرامتها، وأن يحيي في نفسه فضول الإطلاع، وأن يهتجس بهذه الفلسفات لا أن يتوجس منها، وأن يتفادى الثنائيات الضدية القاتلة: المُغالاة في تغريب الغريب وفي استيلافه الاستيلاف على حد السواء.

عنوان الكتاب: رحلة في فلسفات العالم

اسم المؤلف: روجي-بول دروا

دار النشر: ألبان ميشيل

سنة النشر : 2021

* أكاديمي مغربي

العلاقات الاجتماعية الرقمية: ممارسات واستخدامات «الويب»

أوليفييه مارتان وإريك داجيرال

سعيد بوكرامي *

تعتبر مسألة التواصل الاجتماعي في خضم العوالم الرقمية المتطورة قضية مُعاصرة رئيسية في مجتمعاتنا. لكن ما هي مكانة ودور الأجهزة الرقمية في الديناميات الاجتماعية؟ استنادًا إلى استطلاعات ودراسات محددة ومتنوعة، يوضح هذا الكتاب كيف وإلى أي مدى أصبح الإنترنت من أكثر ممارساتنا شيوعًا، إذ غيرت من طرق لقاء الناس، والتفاعل مع الأقارب، والدراسة، واللعب، والمناقشة، والتعبير عن الذات، والخروج مع الغرباء، والعمل، والتفاعل مع القضايا المهمة والتافهة على حد سواء؟ يكشف هذا الكتاب كيف تكيفت حياتنا مع الإنترنت وكيف تكيف النظام الرقمي مع وجودنا، فأصبح يعرفنا أكثر من معرفتنا بأنفسنا. إن فهم دور ومكانة الإنترنت يعني فهم عدد من الوقائع الاجتماعية العامة الراهنة والملحة.

تتجاوز الموضوعات التي يتناولها هذا الكتاب «الفضاء السبيرنيطيقي»، إذ تُظهر الدراسات امتداد وتعقيد الفضاءات المتصلة بالإنترنت. وقد أكد دومينيك كاردون وكريستوف بريور «أن حيوية الممارسات الرقمية هي قبل كل شيء مسألة محادثة (ص ٢٦١)» . هذا هو السبب في أنَّ التفاعل الرقمي هو محور المساهمات الاثنتي عشرة المقترحة في هذا الكتاب. يعرفنا تحليل التواصل الاجتماعي المعاصر كيف تضيف التفاعلات عبر الإنترنت التواصل الأسري والودي والعاطفي والمهني وتوسعه وتزعجه وتؤثر فيه سلبا أو إيجابا.

يصر فرانسوا دو سينغلي أيضًا على هذا الجانب في مقدمته للكتاب مقترحا تأملا عميقا لهذه الاستمرارية، بدلاً من القطيعة، الناجمة عن خصوصية التواصل السوسيورقمي. لهذا يستعير من جورج سيميل العديد من المفاهيم من أجل توفير إطار نظري للمُساهمات المدرجة في الكتاب؛ إذ تقترح مقدمة المشرفين على الكتاب السياقَ النظري والمنهجي الضروري. كما يصر أوليفييه مارتان وإريك داجيرال بشكل خاص على تعقيد التكنولوجيا الرقمية في حياتنا العادية من خلال تحدثهما عن «الوقائع الاجتماعية الخاضعة للتقنية» التي لا تعارض الوقائع الاجتماعية الأخرى، ولكنها تكملها وتعقدها: «إن الوقائع الاجتماعية من المحتمل جدًا وفي نطاقها الواسع، أن تكون وقائع اجتماعية خاضعة للتقنية»؛ لأن الأجهزة التقنية تتدخل، بطريقة أو بأخرى، في الممارسات الاجتماعية، وفي التفاعلات، وفي السلوك الفردي والجماعي «(ص ١٤).

بعد ذلك يُحدد المؤلفون من منظور تربوي ثلاثة مآزق يجب التغلب عليها وخمس نقاط يجب الانتباه إليها. إنهم يحذرون من فرضيات الحتمية التقنية والاجتماعية وينبهون إلى فخ اعتبار فضاء الوقائع الاجتماعية والوقائع التقنية فضاء منغلقا على نفسه. إلى جانب هذا التحذير، يقدم المؤلفون مبادئ التضمين، وعدم الفصل، والتحديد، والحياد، والتشابك بين المادي وغير المادي التي تحكمت في إنجاز تحقيقات هذا الكتاب. في الواقع يوجد هذا الاهتمام التربوي في جميع مظان الكتاب، وفي جميع المساهمات تقريبًا المصحوبة بإطار منهجي يعرض ظروف التحقيق، وينتهي كل فصل بإطار آخر يقدم تفاصيل ومراجع مختلفة تعمل على توسيع نطاق التفكير في الموضوع.

نُظمت المقترحات الاثني عشر التي تلت هذه المقدمة في ثلاثة أجزاء تتكون من أربعة فصول: الجزء الأول عن «ديناميات العلاقات الخاصة» يجمع المساهمات حول العلاقات الأسرية في المناطق الريفية (الفصل ١، وقد أنجزه دومينيك باسكير)، وعرضا للمشاكل الجنسية في مرحلة المراهقة (الفصل ٢، بقلم يائيل أمسيلم-ماينغوي وآرثور فواتو)، ثم يليه الخلط بين المراهقة والتنمر (عبر الإنترنت) (الفصل ٣، الذي قدمه ناتالي دوبين)، وكذلك فصلا عن ممارسات الانفصال عن الإنترنيت خلال الجولات أو النزهات في المناطق الجبلية أو النائية (الفصل ٤، المنجز من طرف كارولين داتشاري وبيير ميركلي ودلفين مورالدو وبينوا تودو). يوضح هذا الجزء الأول التعقيدات الهائلة التي تحدث على الإنترنت وخارجه. ويتمحور الفصل الثالث حول «صراعات» المراهقين عبر شبكات التواصل. استنادًا إلى العديد من الاقتباسات الميدانية التي جعلت التحليل ملموسًا وأكثر واقعية، توضح ناتالي دوبين كيف تُظهر الشبكات الاجتماعية العلاقات الاجتماعية العادية بين المراهقين وتطيل أمدها. ودون الوقوع في التعميم، فقد طورت مفهوم «الحضور المباشر عبر الإنترنت» قبل تحليل ثلاثة أمثلة مختلفة تتضمن ثالوث العلاقات العاطفية والشائعات ونشر الصور عبر الإنترنت. تؤكد ناتالي دوبين على نقطة التحول التي تحدث عمومًا عن طريق تدخل طرف ثالث في العلاقة وتقترح تصنيفًا زمنيًا ومتسلسلًا في حدوث هذه التوترات، ونقطة التحول المرتبطة بتدخل طرف ثالث مما يجعل الارتباك علنيًا. يكون الحل المحتمل للنزاع مشروطا بشكل خاص بأهمية نشره عبر الإنترنت. لذلك يفتح هذا البحث الباب أمام دراسة العنف (السيبراني) والتسلط (عبر الإنترنت) في مرحلة المُراهقة، سواء خلال الاتصال بالإنترنت أو خارج الإنترنت. وكيف أصبح الناس يعيشون في عوالم افتراضية تمتد إلى واقعهم المادي والعاطفي وتتدخل في مصيره.

ويهتم الجزء الثاني بـ«الأنشطة الاجتماعية، ونسج العلاقات». يتناول المؤلفون ممارسة الألعاب ويتناولون لعبة البوكيمون غُوو في (الفصل ٥، قام بإنجازها فانسون بيري وصمويل فانسيغل)، وهي منصة رقمية تتيح لمرتاديها مُقابلة الغرباء والخروج برفقتهم (أما الفصل ٦، فبقلم آن سيلفي فارابود)، ويتمحور حول انتشار الأمية الرقمية في صفوف طلاب الجامعات، لا سيما في سياق الجائحة والتعلم عن بعد (بينما الفصل ٧، الذي أنجزه سيدريك فلوكيجر) يتناول إنتاج المعرفة والصلات الاجتماعية ضمن مجموعات الهواة (الفصل ٨، بقلم فاليري بودوين). في الفصل الثامن، يؤكد المؤلف أن منتديات الهواة هذه لا يُمكن اختزالها في مساحة للتفاعل ولكنها أيضًا مكان لإنتاج المعرفة: «إنها أماكن لحل النزاعات وتنظيمها في بيئة الأفكار وأماكن افتراضية لبناء العلاقات «(ص ١٨٠) التي

تسمح بالمشاركة المتزامنة في المناقشة وكذلك القراءة غير المتزامنة من خلال الأرشيف المتاح. إنها توضح أخيرًا أن هذه المنتديات ليست فضاءات مقسمة ولكنها على العكس فهي فضاءات متصلة بأماكن أخرى وجماهير أخرى، وهذا هو الحال أيضًا بالنسبة لمعظم الوسائل التي اعتنى الكتاب بتحليلها. ويتناول الجزء الثالث «منصات ووسائل ربط العلاقات أو منصات التواصل الاجتماعي»، ويحلل تأثير تطبيقات المواعدة الرومانسية ونجد ذلك في (الفصل ٩، الذي أنجزته ماري بيرجستروم)، وهي منصة لمشاركة أنماط الحياكة والكروشيه، و (الفصل ١٠، المنجز بواسطة فينسيان زابان) يهتم بمنصات البحث عن وظائف للطلاب (الفصل ١١، بواسطة إليز تينريت وماري تريسبيوك وإليز فيرلي). أما فصل فانسيان زابان فقد اهتم بشكل خاص باكتشاف شبكة البنية التحتية المعقدة والغنية التي تسمح بقدر ما بتبادل المعرفة والنماذج والإنتاج من خلال بعض الأعمال المنزلية، لذلك تهتم المؤلفة بمنصة مركزية للحياكة عبر الإنترنت، كما تصف كيف «يفتح الإنترنت إمكانيات جديدة من الإنتاج وكذلك توزيع النماذج والمواد الخام» (ص ٢٢١). فإذا كانت هذه المنصة المتخصصة للغاية تعزز تطوير ثقافة تقنية، فإن توحيد صفحاتها يعتبر أيضًا أحد القيود، لا سيما من خلال منع مشاركة أعمال الخياطة، على سبيل المثال. الحياكة هنا تجعل من الممكن معالجة مسألة بنية هذه المنصات، ومزايا وعيوب توحيد النموذج، وكذلك الأشكال الجديدة للتبادل، التجاري أو غير التجاري، والتي ما فتئت تزدهر عبر الإنترنت.

يقدم الفصل الثاني عشر، بقلم دومينيك كاردون وكريستوف بريور، تفكيرا أوسع في مسألة التفاعلات في الفضاءات الرقمية من خلال تحليل سلسلة الممارسات بين التفاعلات على «شكل تعليق» وتلك الموجودة في «نموذج المحادثة». يتكون الأول من التعليقات المفككة التي تصاحب المحتوى المنشور، بينما تتوافق الثانية مع المناقشات التي تعمل أحيانًا على تعبئة المحتوى الذي سينشر في مكان آخر. بين هذين القطبين، هناك سلسلة متصلة من «الوسائل التي تعبر عن كثب عن وجود المؤثر الجاذب ونظام التبادل» (ص ٢٦٣). من خلال هذه الرحلة عبر تاريخ وسائل المحادثة على الويب، يقدم المؤلفان صورة محفزة للأشكال المعاصرة للتواصل والتفاعل عبر الإنترنت.

كتب خاتمة الكتاب كل من أوليفييه مارتان وإريك داجيرال، اللذان يؤكدان حقيقة أن «إنتاج التقنيات

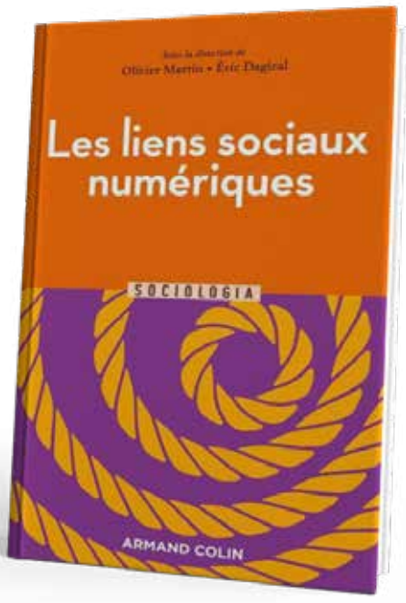

يدمج مجموعة من الخيارات الاجتماعية المتعلقة بالشكل والمبادئ والقواعد التي تشكلها، وعلى وجه الخصوص الاحتمالات المفتوحة - أو لا! - بواسطة الوسائل نفسها الموجهة إلى المستخدمين الذين تستهدفهم مسبقًا «(ص ٢٨٥). وأخيرًا، وضعت باتريس فليشي كلمة الختم حول: «التهجين و هو في المقام الأول نوع من التعايش» (ص ٢٨٩)، قبل أن تُمثّل، من خلال منظور التهجين، الممارسات المعاصرة للتواصل الاجتماعي، والعلاقات الجديدة بين العمل والترفيه، والأشكال الجديدة للتعبير العام وأخيراً الأساليب المقدمة من خلال التقنيات الرقمية.

إن تنوع الدراسات المقترحة والاهتمام الملحوظ بمسائل منهجية الاستقصاء يجعل هذا الكتاب مؤلفًا يجب التوصية به لجميع الطلاب والباحثين في العلوم الاجتماعية إذ سيمكنهم من إلقاء نظرة عامة وواسعة على موضوع راهن وملح، وسوف يستفيدون من النصائح المنهجية الحكيمة، وقبل كل شيء، سوف يكتشفون كيفية تدخل الرقمي وتأثيره في كل ركن من أركان المجتمعات المعاصرة وفي كل ثناياها وخفاياها. بالإضافة إلى ذلك، سيكون الطلبة الجامعيون قادرين على أن يجدوا أنفسهم في مساهمتين على الأقل، تركزان بشكل خاص على «مهنة الطالب». الأولى، بقلم سيدريك فلوكيجر، الذي يستخدم مفهوم « الأمية الرقمية» لاستكشاف كيفية تفاوض الطلاب حول مساراتهم الرقمية عند دخولهم إلى الجامعة. بحيث يمكن مفهوم الأمية الرقمية من «النظر في كيفية قيام التحولات التكنولوجية بتغيير العلاقات الاجتماعية، والعلاقة بالمعرفة، والعلاقة بالتكنولوجيا والمجتمع بأسره» (ص ١٦٣). أما المساهمة الثانية، فهي من تأليف إليز تينريت، وماري تريسبيوك، وإليز فيرلي، الذين يدرسون سوق عمل الطلاب، الذي يعتمد بشكل متزايد على المنصات.بحيث يصف هذا الفصل بالتفصيل، استنادًا إلى بيانات عام ٢٠٢٠، وعود المنصات والقيم التي تروج لها، لا سيما قيم المرونة، وإدارة الوقت بشكل أفضل وسهولة التواصل.

إن القراءة المتأنية لهذا الكتاب تؤكد جليا أنه من أهم الدراسات الاجتماعية التي حللت آليات وتأثير منصات التواصل الرقمي على الحياة الاجتماعية المعاصرة؛ لأن المتخصصين في العلاقات الاجتماعية والدراسات الرقمية سيجدون في كل مساهمة تحليلًا دقيقًا ومفصلاً وحديثًا، أنجزه خبراء مشهورون في هذا المجال. حتى وإن كانت العديد من المساهمات في هذا العمل عبارة عن إعادة طبع لمقالات منشورة في منابر متخصصة، إلا أن جمعها وتنسيقها في انسجام تام جعل مظانها كلها أصيلة وحديثة تستشرف الكثير من القضايا الاجتماعية القادمة المرتبطة بالعوالم الرقمية لأن كل مساهمة على حدة تقدم حقائق محددة وبطريقة دقيقة .

في الواقع، وعلى الرغم من تقديم العديد من المفاهيم المهمة في جميع الفصول، إلا أن القارئ المتخصص يشعر بالأسف لغياب دراسات نظرية متعمقة في بعض النصوص. ومع ذلك، فإن الهوامش الموجودة في نهاية كل فصل تغنينا عن ذلك، لأن العمل يُقصد منه قبل كل شيء أن يكون ميدانيا و تجريبيًا و أكثر فعالية، و بصرف النظر عن هذا النقص المبرر فإن الكتاب عمل هام و أساسي لكل مهتم بالطريقة التي تخترق بها التكنولوجيا الرقمية حياتنا الاجتماعية، خصوصا وأن التطور الرقمي الميتافيرسي يسير في اتجاه الهيمنة الذهنية والنفسية الشاملة على الإنسان المعاصر وتهجينه وفق مرامي النظام العالمي الجديد.

الكتاب: العلاقات الاجتماعية الرقمية: ممارسات واستخدامات «الويب»

المؤلف: أوليفييه مارتان وإريك داجيرال

الناشر: دار أرمان كولان. باريس. فرنسا

تاريخ النشر: 2021

عدد الصفحات: 350ص اللغة الفرنسية

* كاتب ومترجم مغربي

روسيا 2050 : اليوتوبيا والتنبؤات

مجموعة مؤلفين

فكتوريا زاريتوفسكايا *

اختار مؤلفو هذا الكتاب موضوع المستقبل وتلمس ما ستؤول إليه الأوضاع في روسيا بعد ثلاثين عامًا من الآن، معتمدين في ذلك على قراءة الواقع والظروف التي تعيشها البلاد في ظل المستجدات الأخيرة التي طرأت على الساحة الدولية. من جهة، يؤكد المؤلفون على غياب إمكانية النظر إلى المستقبل، ما اضطرهم للتعامل مع الظروف الراهنة الصعبة، حيث ينتقل العالم من أزمة إلى أخرى وحيث تنشب الصراعات عاماً تلو عام ومنها صدمات أسواق الاقتصاد العالمي والأوبئة وقضية المناخ التي أفضت بالعالم إلى درجات حرارة غير مسبوقة وجفاف وحرائق غابات وغيرها من الكوارث.

عدا ذلك ثمَّة عوامل أخرى ظهرت في العقود الأخيرة تجعل من مسألة التفكير في المستقبل أمرا عسيرا على الإنسان. يشير الباحثون إلى أن فقداننا لهذه المقدرة، أي مهارة التنبؤ بالمستقبل، بدأت فعليًا في منتصف القرن الماضي. لقد فقدناها كمؤشر لتطور أعمالنا وكضرورة طبيعية في حياتنا اليومية، ومن يومها خرجت الأفكار عن المُستقبل من مجال مناقشاتنا العامة. «لقد شهدنا آخر لمعة للوعي الطوباوي في أواخر الستينيات، ليتم القضاء عليه بعد ذلك من قبل نظام العمل غير المستقر، هذا النوع من العمل الذي يجبرنا على إيلاء ثقتنا بالوقت الآني والركون إليه، عاجزين عن استيضاح ما ينتظرنا في الغد. وقد تقلّص أفق التخطيط للفرد العادي بشكل مضطرد في العقد المنصرم، ما يدلّ على أن المستقبل ماضٍ في السقوط ليس من الحياة العقلية فحسب ، ولكن أيضًا من الحياة اليومية المعيشة. هذا ما أطلق عليه الفيلسوف الفرنسي فرانسوا أرتو مصطلح «الظاهرة الحاضرية» التي جاءت لتحل محل الوعي التاريخي المفتوح للأمام» (ص: ١٠).

يشرح المؤلفون أنَّه حتى وقت قريب بدا لنا أنَّ الحياة بأكملها تجري كيوم طويل، فأصبحنا نتقبل الحاضر كشيء مستقر، غير قابل للتغيرات، أي أنه شيء متجمد ومؤبد. النتيجة أنه، وما إن ينجم أي خطأ أو هزة، كالهزات الاقتصادية مثلا، حتى يبدأ الوقت في الجريان، باعثا معه سلسلة من الاضطرابات الحادة. وهكذا، فالوقت الذي كان يبدو وكأنه متراص، يبدأ في الانهيار، فتخرج على إثره أفكارنا الدفينة لتؤرقنا وتوخز ضميرنا، يتقدمها التفكير في الفرص الضائعة. لقد بدأت مثل هذه الحركة التكتونية في بداية عام ٢٠١٠ وبحلول بداية العقد الجديد غرقت البشرية في حالة من الشك الكبير في مستقبلها.

نرى هذا في كل مكان، لكن في روسيا يتفاقم الأمر بسبب حقيقة أن التحول الكبير والمؤلم في التسعينيات قد شكل نمطًا اجتماعيًا للبقاء نادرًا ما ينظر فيه الشخص إلى أبعد من الغد. ووفقا للمؤلفين قد لا يحتاج الروس الآن إلى يوتوبيا أو حلم بمستقبل أفضل، ذلك لأن اليوتوبيا كانت تحتل مكانة ثابتة في الثقافة السوفيتية، وكان تنفيذها في الواقع مصحوبًا بمُعاناة الناس وفناء الكثير منهم.

من الناحية الثقافية ظهرت في روسيا الروايات الأدبية المكرسة بالكامل لوصف المشاريع اليوتوبية، على عكس أوروبا التي يندر فيها مثل هذا. من أهم هذه الأعمال تأتي رواية «سوناتا كرويتزر» لعميد الأدب الروسي ليف تولستوي والتي يرسم فيها صورة عالم تؤدي الأسرة فيه وظيفة روحية بحتة. بالنسبة لتولستوي فإن الجذر الروحي للمجتمع هو الفضيلة نفسها. كما تناول الباحثون قصة دوستويفسكي «حلم رجل مضحك» التي تحكي كيفية إنقاذ العالم الفاسد عبر تضحية البطل بنفسه وتحوله إلى مسيح وبالتالي يقترب هذا العمل من صيغة اليوتوبيا اللاهوتية الحديثة.

يرى أحد الباحثين سبب قلة انتشار الأفكار المتعلقة باليوتوبيا في علم الاجتماع الروسي فيذكر أن «اليوتوبيا، من حيث المبدأ، بناء نظري، بينما اليوتوبيا الرسمية في روسيا - آلة تحطم ما عداها، فالحكومة الروسية، دائمًا وأبدا، قوية، لا تسمح بدخول برامج وخطط من خارجها. سمة أخرى لروسيا تظهر في أن الشعارات اليوتوبية التي دخلت الحياة الغربية تدريجيًا، تشتت في روسيا بسرعة فائقة، وفي كثير من النواحي فقدت قوتها على التأثير في الواقع. فقضايا المرأة، على سبيل المثال، تمَّ حلها بعد الثورة البلشفية وبعد أن استقرت فكرة المساواة بين الجنسين وعمّت في جميع مناحي الحياة. لقد شاركت المرأة في بلورة الثورة الاشتراكية وانخرطت في الثورة نفسها كما حملت السلاح إبان الحرب الأهلية التي تلت الثورة. لكن الواقع الذي تبلور بعد الثورة استبعد المرأة فلم يتبق من النساء سوى عدد قليل جدًا في دوائر السلطة، أكان في أجهزة الحزب أو في مكاتب الدولة. لقد تمَّ تهميش المرأة وإيلاؤها الأعمال الثانوية فقط».

تبعاً لهذه الخلفية يطرح الكتاب تساؤلات تتعلق بالراهن الروسي ومنها: ما هي قاعدة الأمل لغدٍ أفضل؟ وما هو المسوغ للحلم بمستقبل واعدٍ؟ وماذا عن التجارب التاريخية التي تشير إلى نقيض ذلك؟ يطرح المؤلفون التساؤلات ويجيبون عليها: «لقد صنعنا المشاكل لأنفسنا واليوم نقف عاجزين عن التفكير بالمستقبل. أصبح العالم أكثر وعيًا بالتغيرات الهائلة التي لا يكفي أن نتعايش معها فحسب، ولكن علينا إدارتها كذلك».

يحمل المؤلفون قناعة تامة بجسامة التغيرات المُقبلة، تغيرات لا تجدي معها التكتيكات الصغيرة والحلول المؤقتة بالنسبة لروسيا - أكبر دولة في العالم، المُتمتعة بالطاقة الذرية والمسلحة نوويًا، بعدد سكانها البالغ ١٤٥ مليون نسمة. يتطلب الأمر الكثير من الجهد ليس على صعيد تقبل هذه

التغيرات وحسب، ولكن لتشكيلها كذلك واستثمارها بحكمة. ومن أجل تخصيص الإمكانات لتحقيق هذا الهدف، لا يمكن الاستغناء عن الأفكار الإيجابية حول الشكل الذي يجب أن تبدو عليه روسيا المستقبلية. في هذا السياق يحاول الكتاب الإجابة على أسئلة من قبيل: ما هي الميزات التي يجب أن يكتسبها البلد ليكون قادرًا على التعامل مع عديد سكانه، وما الذي يجبُ أن يتخذها فورا من أجل توفير حياة كريمة لكافة مواطنيه؟ وهل يمكن التوصل إلى أشكال أخرى أكثر فعالية لتنظيمه الإداري؟ إذ لا يمكن إيقاظ القوى المادية والروحية عبر السوداوية والتنبؤات القاتمة. وحين نعتقد أن المستقبل لن يجلب معه شيئا جيدا، ومع سعينا في تحويل الحاضر إلى صندوق مدخرات يحمينا من المستقبل، فإنَّ ما نقوم به هو إفساد المستقبل ليس إلا. على هذا الحال سيكون شبه مستحيلٍ تحقيق أي تقدم في سبيل الأمن والرفاهية.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء. يقدم الأول منها مقاطع أدبية طوباوية أو سوداوية عن روسيا بعد ثلاثة عقود، وفيه يطلق المؤلفون العنان لخيالهم. هنا نجد كلا من الأمثلة المتفائلة وأجراس النذير وذلك بصيغة قصص قصيرة كتبت خصيصا ليحتويها هذا الكتاب. مثال لذلك - يقوم أحد المؤلفين برحلة متخيلة بطول خط السكك الحديدية العابرة لسيبيريا وإلقاء نظرة على روسيا بعد فقدانها جزءًا من أراضيها الإمبراطورية. وحسب تصورات كاتب آخر، سيتم تقسيم الدولة إلى مدن متنافسة ذات تقنيات عالية. ويتضمن الجزء الثاني من الكتاب رؤية مستقبلية تعتمد على تنبؤات دقيقة تقوم على أسس علمية ويطرحها نفرٌ من العلماء والخبراء الاختصاصيين. هنا نستمع إلى إصوات علماء السياسة وعلماء الاجتماع والاقتصاديين. وكما أشار الناشر، لم يتلق الباحثون توجيهات محددة وعملوا في ظروف حرة بدون أن يعلم أحدهم شيئا عن الآخر. مع ذلك يمكن للقارئ أن يستنبط موضوعات وأفكارا تتوارد بين هذا الباحث أو ذاك برغم اختلاف اختصاصهما. ومن أجل وضع خريطة ذهنية للكتاب عمد الناشر إلى وضع هوامش تحتضن هذه التواردات الفكرية بين المؤلفين. ولهذا الغرض تم استخدام نظام المراجع

التبادلية. وأيضا تم استخدام الذكاء الاصطناعي الذي رسم صورا رمزية لروسيا ما بعد عقود وذلك اعتمادا على مضامين البحوث الواردة. كما بلورت الشبكة العصبية الالكترونية عددًا من صور روسيا ٢٠٥٠ بناءً على المعلومات المُعاد دمجها.

ساهم في تأليف الكتاب فريق من الخبراء من جميع التخصصات. نجد أن الباحثين الروس في الدراسات الاجتماعية المختصة بالتكنولوجيا يقدمون عددًا من الملاحظات المثيرة للاهتمام. خذ مثلا التغييرات الطفيفة، المهمة رغم ذلك، التي تحدث في منازلنا، حيث أصبح التواصل عبر الأنترنت يحوز مساحة من المنزل، وهذه ممارسة جديدة نسبيًا. يشير الباحثون إلى ظهور منطقة جديدة داخل المنزل أصبحت عامة، يشترك فيها الكثيرون من مختلف أنحاء العالم ولم تعد حصرا على ساكنة المنزل. لقد أضحت المؤتمرات والمحاضرات والجلسات الاستشارية تُعقد عبر الإنترنت وشرع الناس يفكرون في تأثيث منطقة العمل هذه: رف به كتب معينة أو جدار أبيض به صورة أو زاوية فارغة أو نافذة بإطلالة جميلة، كل هذا لم يعد مجرد جزء من المنزل، بل هيكل داخلي منفصل عن باقي المنزل ويعمل ضمن مساحة التواصل مع العالم الخارجي. في هذا الواقع المستجد بات المنزل يفقد جدرانه، وأسراره، شيئا فشيئا، وتزعزعت فكرته الأزلية في عالم متغير. لقد انفتح باب في المنزل إلى الفضاء العام والمشترك.

من الملاحظات التي يوردها الباحثون هناك ظاهرة اجتماعية جديدة نسبيًا تتحدد في السعي إلى امتلاك مساكن شخصية متعددة (شقق، بيوت) يكمّل بعضها البعض. فعندما يشتري ممثلو الطبقة الوسطى في روسيا مساكن إضافية في بلدان أخرى فهم يوسعون بذلك حياتهم أو يكملون ما نقص منها، بالتالي، وانطلاقا من هذا النزوع الجديد، أصبح مفهوم الاستقرار أوسع مما اعتدناه، إذ لا يكفي بيت واحد للشعور به، ولا يكفي وطن واحد للامتلاء بالحياة. لا يفوتنا القول إن المؤلفين لم يهملوا في دراساتهم وبحوثهم النظريات الاجتماعية ما جاد به المؤرخ والفيلسوف العربي ابن خلدون وتطويره لنموذج بارع جاءت فيه المدينة كموضوع لكفاح العصبيات الأبدي، حيث تستولي عليها القبائل الأجنبية ثلاثين عامًا، تبدأ بعدها هذه القبيلة المُتسيدة بالذوبان، تهضمها المدينة، وفي النهاية تفقد قوتها تمامًا لتحل محلها قبيلة أخرى. ويستخلص أحد المؤلفين من التحليل الخلدوني في حالة تطبيقه على روسيا أن الاضمحلال التام للنظام سيقع في عام ٢٠٣٠ مدللا على كلامه بالقول: «تعيش روسيا مرحلة انتقالية. إنها آخر امبراطورية قديمة. فبانقضاء القرن العشرين وما فات من القرن الحادي والعشرين، اندثرت كافة الإمبراطوريات الإقليمية في العصر الجديد، وتم إنشاء اتحادات عالمية وإقليمية جديدة، وبدأت سيادة الدول القومية بالتفجّر، وراح مناهضو العولمة ينسحبون ويعتزلون العالم ومشاكله (...) بطريقة أو بأخرى فقد بدأنا نشهد التفكك التدريجي للإمبراطورية الروسية أو الدولة الروسية منذ أكثر من مئة عام، ولكن الوتيرة تسارعت بعد عام ١٩٩٠، ويبدو واضحا أننا اليوم على عتبة مرحلة جديدة من الانقسام. ومن المنطقي أن اكتمال هذه العملية أمر لا مفر منه» (ص: ٢٠٧-٢٠٥).

الكتاب: روسيا 2050 ... اليوتيوبيا والتنبؤات

المؤلف: مجموعة مؤلفين

دار الإصدار: نوفوي إزداتيلستفو/موسكو/2021

اللغة: الروسية

عدد الصفحات: 600

* أكاديمية ومستعربة روسية

المصير المحتوم: سياسة الكوارث

نيل فيرغيسون

محمد السماك *

نيل فيرغيسون ليس مجرد زائد واحد إلى عدد المؤرخين المعاصرين. في بريطانيا على الأقل يُعتبر فيرغيسون رائد هؤلاء المؤرخين؛ ذلك أن كتبه التاريخية ليست سردية للوقائع والأحداث بقدر ما هي دراسات اجتماعية - فلسفية حول الأسباب والنتائج . أسباب الصراعات وخلفياتها، والنتائج التي أسفرت عنها بالنسبة للعلاقات بين المتحاربين والمتصالحين. ولذلك فإن كتبه تعتبر مرجعاً علمياً ومنارة يستضيء بها الباحثون. ولا يختلف عن ذلك كتابه الجديد:» المحتوم»، ولذلك نُشر في لندن في الوقت ذاته الذي نُشر في نيويورك وواشنطن . وتولّت النشرة الإنجليزية للكتاب دار نشر ألين لين Allen Lane .

وتفسيراً لهذا العنوان الذي قد يبدو للوهلة الأولى غامضاً، فقد وضع المؤلف عنواناً إضافيا فرعياً له هو «سياسة الكوارث». وبهذا العنوان التوضيحي أصبح الهدف من الكتاب واضحاً ومفهوماً . وهو كيف يصنع الإنسان الكوارث التي تعصف به؟ ولماذا ؟ وما هي النتائج التي تترتب عليها؟؛ فالكوارث الإنسانية بالنسبة إليه هي من صنع الإنسان في الدرجة الأولى. وتالياً فإن الإنسان مسؤول عنها. والغريب في ذلك أن فيرغيسون يدرج حتى الكوارث الطبيعية في إطار هذا التصنيف. ومن ذلك اعتباره كارثة انتشار وباء كورونا (كوفيد-١٩) الذي أودى بحياة أكثر من خمسة ملايين من البشر في الشرق والغرب، واحدة من الكوارث التي يتحمّل الإنسان مسؤوليتها. وذلك بصرف النظر عن الجدل العلمي - السياسي الذي يدور حول أصل الفيروس ومصدر الوباء !!.

صحيح أن المؤلف لم يقف عند حدود إطلاق الأحكام، ولكنه ذهب في دراسته إلى أبعد من ذلك، فألقى الضوء على الأسباب والنتائج . وهي أسباب جدلية لا تزال موضع أخذ وردّ حتى الآن، وربما تستمر لفترة طويلة أيضاً، كما توقع هو نفسه في كتابه.

يقول المؤلف إن كل الكوارث هي إلى حدّ ما نتيجة كوارث سياسية ارتكبتها يد الإنسان. حتى ولو أنها بدأت أو انطلقت من بؤر جديدة تحمل جرثومة مرضية .

وهو يعزو ذلك إلى ما يتمتع به المجتمع -أيّ مجتمع- من مواصفات، مثل : الخضوع للأمر الواقع، والهشاشة المجتمعية، والقدرة على التعامل مع مخلفات ونتائج الكارثة التي تنزل به. وسواء كانت هذه الكارثة ناتجة عن عوامل طبيعية مثل الانفجار البركاني (أندونيسيا) أو الهزات الأرضية (نيبال) أو موجات التسونامي (اليابان) أو انتشار الأوبئة (الولايات المتحدة وسواها).

وفي الواقع فإن هذا الموضوع هو موضوع الساعة؛ ذلك أن العالم مفتوح على كل أنواع هذه الكوارث الطبيعية أو الإنسانية والتعامل معها يختلف من مجتمع إلى آخر، ليس من حيث الإمكانات المادية فقط، ولكن من حيث المشاركة الجماعية في مواجهة الكارثة وتداعياتها، فحيث تتلاشى إمكانية النجاة الفردية تصبح التضحية بالذات -الفردية- أحياناً أساساً للنجاة الجماعية.

وعندما يتطرق المؤلف إلى موضوع وباء كوفيد ١٩ الذي فتك بالعالم على مدى العامين الماضيين، فإنه يؤكد على مبدأ توافر عدة عوامل لمجابهة الوباء، ويعتبر أن التباين في نتائج انتشار الوباء يتوقف على التباين والاختلاف في كيفية مواجهته بين مجتمع وآخر، كما أنّه يعكس بصورة مباشرة -وغير مُباشرة- نقاط القوة والضعف الجماعية أو المجتمعية في هذه المجتمعات. صدر كتاب الدكتور فيرغيسون في الوقت الذي لا تزال جائحة كورونا تفتك بالبشرية حول الكرة الأرضية، إلا أن المقارنة بين عدد المصابين الذي نجوا وعدد الضحايا الذين قضوا في الصين وفي الولايات المتحدة مثلاً، أو في إيطاليا والسويد مثلاً آخر، تفتح الآفاق واسعة للدراسات الاجتماعية حول النظم المتحكمة أو الصانعة لسلوك الناس، أفراداً وجماعات، ومدى الالتزام بهذه النظم سواء بالاختيار الذاتي أو بالتهديد الوقائي، أو حتى بالعقاب المادي.

ويقول المؤلف إنَّ هناك عدة عوامل تلعب دوراً رئيسياً في صياغة سلوك الدولة في مواجهة الجائحة، وإن بعض هذه العوامل يحتاج إلى اكتشاف ومن ثم الإضاءة عليه، وإن ذلك مهم لفهم أسباب تعدد المواجهات التي عرفتها المجتمعات المختلفة في العالم للوباء (كوفيد ١٩) وللنتائج التي أسفر عنها انتشار الوباء من جهة، ولكيفية مواجهته من جهة ثانية.

وهنا يقدم المؤلف مقارنة بين الإجراءات التي اتخذتها الصين الوطنية (تايوان) مثلاً، والنتائج الباهرة التي أسفرت عنها، والأزمة الإنسانية المؤلمة التي واجهتها الهند. ويقول

حتى الولايات المُتحدة والدول الأوروبية كان يفترض بها أن تُحقق نجاحات أفضل. أما لماذا لم تُحقق ذلك، فإنّه أمر لا يزال مفتوحاً للبحث الاجتماعي وليس التنظيمي فقط.

هذه النظرية الاجتماعية سبق أن اهتم بها بالعمق الباحث الاقتصادي -أمارتيا صن- في كتاب له عنوانه :» الفقر والمجاعة: مقالة في التفويض والحرمان، والذي حصل بسببه على جائزة نوبل للاقتصاد في عام ١٩٨١م.

وفي هذه النظرية يبيّن الدكتور صن كيف أنَّ المجاعة التي يواجهها شعب ما لا تعود بالضرورة إلى سوء المحصول الزراعي، وإنما إلى سوء الإدارة السياسية. وهناك أمثلة عديدة أخرى في التاريخ الحديث:

لقد كان النقص في عدد قوارب النجاة مسؤولاً عن موت ركاب الباخرة =تايتانك- التي اصطدمت بجبل الثلج.

إن انفجار مركبة الفضاء الأمريكية تشالنجر لم يفاجئ أحد العلماء ريتشارد فايمان الذي سجّل عيوباً قبل الإطلاق، ولكن جرى تجاوزها.

إن الكارثة الإنسانية التي حلّت بسوريا، أشعل فتيلها عود ثقاب «سوء التقدير».

والآن تواجه العلاقات الأمريكية = الصينية خطر إشعال عود ثقاب من هذا النوع.

ويقول فيرغيسون إن من شأن السياسة تنظيم العمل المشترك للأشخاص والمؤسسات والمنظمات، وأنه عندما تحلّ كارثة بالإنسانية، فإنَّ الإنسانية نفسها تكون المسؤولة وأنها هي التي يجب أن تُلام !!.

هنا يقدم فيرغيسون أمثلة شيقة من التاريخ القديم يمكن الاستنارة بها = وهو ما يفعله عادة في كتاباته التاريخية. من ذلك مثلاً الوقائع التي سجلّها المؤرخ اليوناني الشهير تيوسيدس حول المجتمع الأثيني (نسبة إلى العاصمة أثينا) بعد أن ضربها الوباء (للمقارنة مع انتشار وباء كورونا في عصرنا الحالي).

ويذهب فيرغيسون إلى أعمق من ذلك وهو كبير المؤرخين في القرن الواحد والعشرين إلى تقديم

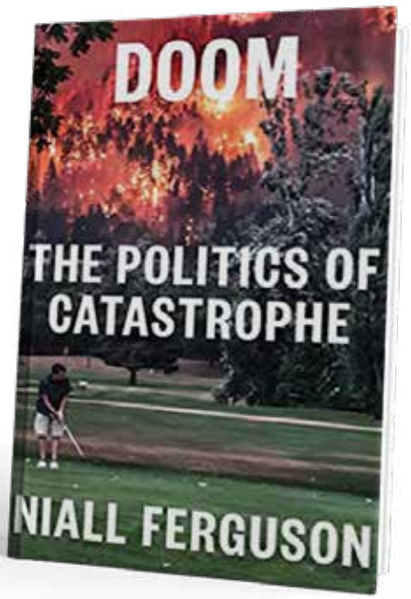

الرواية الخلفية لمعركة =الصوم= التاريخية في الحرب العالمية الأولى والتي أودت بحياة عشرات الآلاف من الجنود في المعسكرين المتحاربين. كما يقدّم الأسباب غير المعروفة لانهيار وسقوط أسرة مينغ التي كانت تحكم الصين والتي أدى سقوطها إلى تغييرات جوهرية واستراتيجية في الصين وحولها، ويربط هذه الجولة التاريخية في عملية البحث عن جواب للسؤال الذي وضع كتابه في الأساس من أجله، وهو: ما هي العلاقة بين الإنسان والكارثة التي يواجهها؟ ومن المسؤول عنها ؟ ولماذا ؟ وكيف؟.

لقد طاف المؤلف في الأحداث التاريخية الفاصلة التي عرفتها الإنسانية في الشرق والغرب على حد سواء لتأكيد نظريته التي تحمّل الإنسان، والإنسان وحده في الدرجة الأولى، مسؤولية الكوارث التي حلّت به. واستطراداً، تلك التي يمكن أن تحلّ به في المستقبل.

فما الحكمة من ذلك ؟

هنا نتذكر ما ورد في القرآن الكريم عندما أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم (الذي خلقه الله من تراب وخلقهم من نار ونور)، قالت الملائكة (البقرة ٣٠) : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون».

إنَّ عرض كتاب المؤرخ الموسوعي الدكتور فيرغيسون يقدّم لائحة اتهام للإنسان بالمسؤولية عن كل ما يحلّ بالكرة الأرضية من كوارث. وفي الواقع فإن القدرة التدميرية النووية التي تملكها دولتان فقط هما الولايات المتحدة والاتحاد الروسي، كافية لقتل كل إنسان على سطح الأرض أكثر من عشر مرات. وهناك دول عديدة أخرى مسلحة نووياً (الصين وفرنسا وبريطانيا وكوريا الشمالية وإسرائيل) . كما أن هناك دولاً أخرى انضمّت إلى هذه المجموعة في مقدمتها الهند وباكستان.. إن أي تصرّف مبني على ردّ فعل أو معلومة خاطئة، أو سوء تقدير، من شأنه أن يضع الكرة الأرضية كلها على كفّ عفريت.

من هنا عنوان الكتاب: المصير المحتوم.

وكأن هذا المصير هو قدَر مقدّر. والإنسان المسؤول عن الكوارث التي تحلّ بالكرة الأرضية والتي تصنع هذا القدر -كما يؤكد المؤلف- هو نفسه الذي يبحث عن كوكب آخر يصلح لحياة الإنسان في المجموعة الشمسية.

والمفارقة المضحكة - المبكية في هذا الأمر هو أنه في الوقت الذي صدر هذا الكتاب العلمي الموثّق عن مسؤولية الإنسان، تصدر مؤلفات أخرى تعزو إنجازات العالم القديم (الفراعنة في الشرق والأزتيك في جنوب ووسط أمريكا) إلى مصادر فضائية عرفت طريقها إلى الكرة الأرضية وأقامت فيها المنشآت التي لا يزال بعضها مستمراً حتى اليوم !!.

الكتاب : المصير المحتوم: سياسة الكوارث

المؤلف : نيل فيرغيسون Niall Ferguson

الناشر : بنجوين Penguin

الصفحات : 496

التاريخ 2021

* مفكر لبناني متخصص في دراسات العلوم والسياسة والفكر الإسلامي

العقلانية: ماهيتها، ندرتها، وأهميتها

ستيفن بينكر

علي الرواحي *

يطرح المحلل النفسي الكندي/الأمريكي ستيفن بينكر Steven Pinker في عمله هذا الكثير من الأسئلة التي تبدو إلى حدٍ كبير تحصيل حاصل، ومتعارف عليها، ولا تحتاج للتساؤل حولها، مثل: ما العقلانية؟ ولماذا أصبحت نادرة؟ وما هي أهيمتها في هذا العصر؟ فمنذ فترة طويلة أصبح العقل مرجعاً في الكثير من الحجاجات الفكرية واللغوية وغيرها، كما أصبحت العقلانية الصفة الإيجابية التي يتسابق ويتبارى الكثير، إن لم يكن الجميع، للتشبث بها، والتقيد بقوانينها، ووضعها كعناوين في كتبهم، ومحاضراتهم ومقولاتهم.

غير أنه في الفترة الأخيرة أصبحت المقولة التي ترى أن البشر عقلانيون، ويتصرفون بترشيد وحكمة محل شك وجدال كبيرين، أكثر من أي وقت مضى، بالرغم من التقدم الكبير في حياة الكثير من البشر، وانخفاض رقعة الفقر، وتقليل الأوبئة والأمراض، وظهور مصطلح الإنسان العاقل Homo sapiens الذي يعني حقبة بشرية جديدة، مغايرة لما سبقها، مكنته من الانفصال عن بقية الكائنات الحيَّة وتميزه عن طريق الصناعة ومُفارقته لمجتمعات الصيد.

فعلى مدى أحد عشر فصلا، يطرح الكتاب تساؤلات مختلفة، ويُقلّب مفهوم العقلانية على محاور متعددة، بين المنطق والتفكير النقدي، والاحتمالية والعشوائية، والاعتقاد والدليل، والمخاطرة ومردودها، والذات والآخر، والسببية والعلائقية، آملاً من كل ذلك الوصول لمفهوم يستطيع من خلاله الحديث عن العقلانية، كما هو السؤال الذي يطرحه في بداية الفصل الثاني عن الفرق بين العقلانية واللاعقلانية Rationality and Irrationality، والذي يعترف فيه بصعوبة الإجابة على هذا السؤال وتحديده، غير أنَّ هذه الصعوبة لا تعني الاستحالة وانعدام الإمكانية؛ فبحسب القواميس وبالعودة للجذر اللاتيني تعني العقلانية امتلاك سبب، والسبب يُعرّف أيضاً بمثابة عقل كترادف للمفردتين reason.

غير أنَّ التعريف الأكثر قبولاً للعقلانية كما يرى بينكر هو:«القدرة على استخدام المعرفة لتحقيق الأهداف»(ص٢٧). بحسب هذا التعريف فمن غير الممكن وصف شخص ما بأنه عقلاني إذا تصرف وفقاً لمعتقدات كان معروفاً أنها خاطئة. علاوة على ذلك، يضيف بينكر في تعريفه للعقلانية، بأنه يجب أن تكون المعتقدات قادرة للوصول لهدف محدد، أي يجب أن يكون للفاعل العقلاني أو الفرد هدف، سواء أكان التأكد من حقيقة فكرة جديرة بالملاحظة، تسمى العقل النظري، أو لتحقيق نتيجة جديرة بالملاحظة في العالم، تسمى العقل العملي (أي «ما هو صحيح» و «ما يجب فعله»). بمعنى آخر، تعني العقلانية الرغبة العملية للوصول للشيء، والطرق التي تسمح بالوصول إليه، والحصول عليه.

غير أن هذا التعريف لا يُمكن القبول به بإطلاق، فهناك الكثير من التحديات التي تواجهه، مثل كيفية التأكد من مبررات معتقد ما، وكيفية وضع خطط لموضعته على أرض الواقع، وكيف نعرف أن الوسائل التي يمكن إيجادها تحقق غاية معينة؟ وربما السؤال الذي يجعل هذه المراجعة لها أهميتها ووجاهتها بطريقة أخرى هو: كيف نحكم على العقل بأدوات العقل نفسه؟ فعندما نطبق قواعد أو معايير العقل على العقل نفسه، نجد أنه ليس مجرد حماسة مندفعة، أو وحي غامض ينقل الحقائق لنفوسنا دون قواعد، حيث يمكننا كشف قواعد العقل وتنقيتها عن طريق نماذج معيارية للمنطق والاحتمال. كما يمكننا تنفيذها عن طريق آلات تتكرر وتتجاوز قوتنا العقلانية. مثلاً، أجهزة الكمبيوتر هي حرفياً منطق ميكانيكي، وتسمى أصغر دوائرها البوابات المنطقية logic gates. فالضمان الآخر على صحة العقل هو أن الأفكار تعمل؛ فالحياة ليست حلماً، نظهر فيه في أماكن منفصلة وتحدث أشياء محيرة بدون إيقاع أو سبب، بل وعن طريق نشر الأفكار بطرق أخرى، نصل إلى القمر، ونبتكر الهواتف الذكية، ونقضي على الجدري. ذلك أن من خلال تعاون الأفراد عندما نطبق الأفكار على تفاصيل الحياة المختلفة، يعتبر مؤشرا قويا على أن العقلانية تصل حقا إلى الحقائق الموضوعية.

في مقابل ذلك، يطرح بينكر تحدياً كبيراً وعاطفياً أمام العقلانية حسب التعريف السابق، وهو: هل يجب أن نتبع العقل دائماً؟ ألا يمكننا التوقف قليلاً عن التفكير، والاستمتاع بملذات الحياة والجري وراء المتع والتصرفات المجنونة وربما السخيفة؟ وما هي علاقة الجمال والحُب واللطافة بالعقلانية؟ بالرغم من أنها ليست عقلانية بالمعنى المتعارف عليه. وهل يمكننا تطبيق قواعد العقل على عواطفنا وأخلاقنا، وهل هناك عقلانية أعلى رتبة تخبرنا متى يكون من المنطقي أن تكون غير عقلاني.

بهذا المعنى فإن هناك تعارضاً بنيوياً بين الأهداف، فالبشر لا يريدون شيئاً واحداً فقط. إنهم يريدون الراحة والمتعة، لكنهم يريدون أيضاً الصحة، وازدهار أطفالهم، وتقدير زملائهم، وتقديم سردية مرضية عن الطريقة التي عاشوا بها حياتهم. نظراً لأن هذه الأهداف قد تكون غير متوافقة، فإن - على سبيل المثال - فطيرة الجبن تؤدي إلى التسمين، كما أن الأطفال غير المراقبين يقعون في مشاكل، والطموح الشرير يكتسب الازدراء، لكنك في النهاية لا يمكنك الحصول دائماً على ما تريد؛ فبعض الأهداف أكثر أهمية من غيرها: الرضا عميق، والمتعة تدوم لفترة أطول، والسرد أكثر إقناعا؛ حيث إننا نستخدم رؤوسنا/أدمغتنا/عقولنا لتحديد أولويات أهدافنا ومتابعة بعضها على حساب البعض الآخر. في الواقع، بعض أهدافنا الواضحة ليست حتى أهدافنا حقاً، إنها أهداف مجازية لجيناتنا؛ فالعملية التطورية للجينات - بحسب بينكر - تختار تلك التي تؤدي إلى أن يكون للكائنات أكبر عدد ممكن من النسل على قيد الحياة في البيئات التي عاش فيها أسلافهم؛ فهم يفعلون ذلك عن طريق إعطائنا دوافع ومحفزات مثل الجوع والحب والخوف والراحة والجنس والقوة والمكانة. يسمي علماء النفس التطوري هذه الدوافع «تقريبية» proximate"، بمعنى أنها تدخل في تجربتنا الواعية ونحاول عن عمد تنفيذها. يمكن مقارنتها مع الدوافع «النهائية» ultimate" للبقاء والتكاثر، والتي هي الأهداف الرمزية لجيناتنا، والتي نحاول في الكثير من الأحيان أن نتخيل ما الذي ستقوله الجينات لو أنها استطاعت التحدث والتعبير عن نفسها؟

وهذا يقودنا للحديث عن التعارض بين الأطر الزمنية نظراً لعدم حدوث كل شيء في وقت واحد، غالباً ما تتضمن النزاعات بين الأهداف أهدافاً تتحقق في أوقات مختلفة. وغالباً ما تبدو هذه بدورها كأنها صراعات بين ذوات مختلفة، ذات تعيش في الماضي وأخرى تعيش في المستقبل؛ فالحياة عبارة عن هزائم لا تنتهي من اختبارات مختلفة، وهي معضلات تجبرنا على الاختيار بين مكافأة صغيرة عاجلة ومكافأة كبيرة لاحقة، بين مشاهدة فيلم الآن أو اجتياز دورة تخصصية لاحقاً؛ بين شراء كرة السلة الآن أو دفع الإيجار لاحقاً؛ أو التي تُعرف في علم النفس بمعضلة المارشميلو Marshmallow Dilemma، والتي يُشار إليها بعدة أسماء، بما في ذلك ضبط النفس، وتأخير الإشباع، والتفضيل الزمني. درس الاقتصاديون الأسس المعيارية لضبط النفس عندما يتعين علينا الانغماس الآن في متُع معينة أو تأجيلها لوقت لاحق، والتي تعوض الناس عن التخلي عن المال الآن مقابل أشياء أخرى لاحقاً. لقد ذكّرونا بأن الخيار العقلاني غالباً هو الانغماس الآن في الأشياء، فكل

هذا يتوقف على متى يحدث ذلك، ومقداره أيضاً.

في الواقع، فإن مثل هذه الاستنتاج يعتبر جزءا من الحكمة الشعبية، كما أنه مأخوذ من الأمثال ويستخدم في النكات أيضا ً.مثل: أولاً، «عصفور في اليد ولا عشرة في الشجرة»، حيث يشير هذا المثل أو هذه الحكمة إلى اغتنام اللحظة، واقتناصها وعدم التأجيل، كما يُشير إلى كيف يعرف الشخص أن يحقق له وعده ويكافئ على صبره بقطعتين من الحلوى عندما يحين الوقت؟ وكيف نعرف أيضاً أن صندوق المعاشات التقاعدية سيظل قادرا ً على الوفاء بالتزاماته عندما يتقاعد العامل وأن الأموال التي ندفعها للتقاعد ستكون متاحة عند الحاجة؟ ثانياً، على المدى الطويل نحن جميعاً في عداد الأموات؛ حيث يمكن أن يُصاب الشخص بالمرض غداً، وفي هذه الحالة ستضيع كل السعادة التي أرجأتها إلى الأسبوع المقبل أو العام المقبل أو العقد المقبل. ثالثاً، لن تكون شاباً إلا مرة واحدة في العُمر. قد يكون الحصول على قرض عقاري في الثلاثينيات من العمر أكثر تكلفة من الادخار والدفع النقدي لمنزل في الثمانينيات من العمر، ولكن مع الرهن العقاري يمكنك العيش فيه طوال تلك السنوات، والسنوات ليست أكثر عدداً فقط ولكنها مختلفة أيضاً من نواحٍ كثيرة.

هذه أمثلة على بعض التحديات التي تواجهها العقلنة، وغيرها الكثير من الرغبات والنزعات البشرية والانفعالات المتجددة التي تحكمت وتتحكم في السلوك البشري، والتي تشير إلى ضرورة البحث في العقلنة وأهميتها ولماذا أصبحت شحيحة في هذه الفترة الزمنية المعاصرة.

في الفصل الثاني من هذا العمل يناقش بينكر الفرق بين المنطق Logic والتفكير النقدي Critical thinking، ولكن ليس بالمعنى الفضفاض للمنطق في العقلانية، بل بالمعنى التقني لاستنتاج الجُمل الصحيحة (الاستنتاجات) من العبارات الصحيحة الأخرى (المقدمات). مثال: من عبارات «جميع النساء بشر» و "Xanthippe امرأة»، يمكننا أن نستنتج أن "Xanthippe فانية. يعد المنطق الاستنتاجي أداة فعالة على الرغم من حقيقة أنه لا يمكنه إلا استخلاص النتائج الموجودة بالفعل في المقدمات (على عكس المنطق الاستقرائي). وذلك نظراً لأن الناس يتفقون على العديد من الافتراضات - كل النساء فانيات، ومربع الثمانية هو ٦٤ ، والصخور تتساقط ولا ترتفع، والقتل خطأ، فإن الهدف من الوصول إلى افتراضات جديدة أقل وضوحاً هو هدف يمكننا جميعاً القبول به؛ حيث تتيح لنا الأداة التي تتمتع بهذه القوة اكتشاف حقائق جديدة حول العالم من أبراجنا العاجية، كما تتيح لنا حل النزاعات حول العديد من الأشياء التي لا يتفق عليها الناس.

غير أنه من الضروري للتوضيح التفريق بين المنطق الشكلي Formal Logic والمغالطات الشكلية Formal Fallacies. يسمى المنطق «شكليا» لأنه لا يتعامل مع مضامين العبارات ولكن مع أشكالها، أي الطريقة التي يتم تجميعها بها من الموضوعات والمستندات والكلمات المنطقية مثل و and ، أو not ، or لا، all كل، بعض if، some إذا، وغير ذلك. حيث لا يهتم المنطق غالباً بالمواضيع التي نهتم

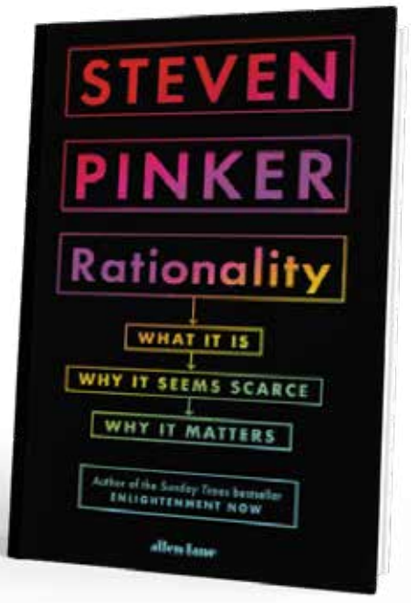

بمحتواها، مثل «يجب عزل رئيس الولايات المتحدة من منصبه عند إجراء مساءلة وإدانة بشأن الخيانة والرشوة أو غير ذلك من الجرائم والجنح الجسيمة». نستنتج أنه من أجل عزل الرئيس، لا يجب عزله فحسب، بل يجب إدانته أيضا ، وأنه لا يلزم إدانته في كل من الخيانة والرشوة؛ بل شرط واحد يكفي. غير أن قوانين المنطق عامة الغرض: فهي تنطبق سواء أكان المضمون موضوعياً أو غامضاً أو حتى لا معنى له. كانت هذه النقطة، هي التي دفعت لويس كارول Lewis Carroll إلى تبني مصطلح «المغالطات" sillygisms" في كتابه المدرسي للمنطق الرمزي عام ١٨٩٦م، والذي لا يزال يستخدم الكثير منها في دورات المنطق اليوم.

في هذا السياق، يُطرح السؤال المهم حول الجدوى: ما الفائدة المادية للقدرة على تحديد الأنواع المختلفة من الحجج الصحيحة وغير الصحيحة؟ ففي كثير من الأحيان يمكن كشف التفكير الخاطئ في الحياة اليومية. غير أن الإجابة تأتي بأنه عن طريق الجدل العقلاني نتمكن من وضع أرضية مشتركة من المقدمات التي يقبلها الجميع على أنها صحيحة، وذلك جنباً إلى جنب مع العبارات الشرطية التي يوافق الجميع على جعل اقتراح ما يتبع الآخر، ثم التمرير عن طريق قواعد الاستدلال الصحيحة التي تسفر عن الآثار المنطقية والمنطقية فقط من المقدمات. ففي الغالب لا ترقى الحجة إلى هذا المثل الأعلى؛ فهي تستخدم قاعدة استدلال خاطئة، مثل تأكيد النتيجة، أو تعتمد على فرضية لم يتم ذكرها صراحة مطلقاً، مما يحول القياس المنطقي إلى ما يسميه المنطقيون مضادا للموضوع enthymeme، أي: تلك الحجة التي لا يتم فيها ذكر فرضية واحدة بشكل صريح. ففي الوقت الحالي، لا يوجد إنسان لديه الوقت أو مدى الانتباه لوضع كل فرضية وتضمينها في حجة تحت الفحص النقدي. لذلك في الممارسة العملية، فإن جميع الحجج تقريباً بدون فرضيات. ومع ذلك، قد يكون من المفيد تفكيك منطق الحجة كمجموعة من المقدمات المنطقية والشرطية، لتحديد المغالطات والافتراضات المفقودة. التي يطلق عليها إعادة الإعمار الشكلي formal reconstruction، والذي أحيانا ً يوظفه أساتذة الفلسفة لصقل تفكير طلابهم.

أحد التحديات الرئيسية بالإضافة للسابقة التي تجعل المنطق لن يحكم العالم أبدا ً - كما يرى بينكر - هو التمييز الأساسي بين الافتراضات المنطقية والقضايا التجريبية، والتي أطلق عليها هيوم «علاقات الأفكار» و «مسائل الحقيقة»، ويسميها الفلاسفة التحليلي والتركيبي. و لتحديد ما إذا كان «جميع العزاب غير متزوجين» صحيحاً، على سبيل المثال، ما عليك سوى معرفة معنى الكلمات (استبدال «الأعزب» بعبارة «ذكر وبالغ وليس متزوجا) والتحقق من الحقيقة. ولكن لتحديد ما إذا كانت عبارة «جميع البجع بيضاء» صحيحة، يجب عليك الخروج من كرسيك والنظر للخارج وزيارة بعض المناطق مثل نيوزيلند للتحقق من هذه الجملة.

ولكن، لماذا العقلانية مهمة؟

إن تقديم الأسباب التي تجعل العقلانية مهمة لا يمكن أن ينجح إلا إذا قبلنا أولاً القاعدة الأساسية القائلة بأن العقلانية هي السبيل الوحيد لتقريرالأشياء والمواضيع المهمة. لحسن الحظ، كما سبق التوضيح، نقبل جميعاً أسبقية العقل، على الأقل ضمنياً، بمجرد أن نناقش هذه المسألة، أو أي قضية، بدلاً من الإكراه على الموافقة بالقوة. يجب أن يكون ذلك، عن طريق النظر للواقع على أنه يحكمه المنطق والقانون المادي بدلاً من الشيطانية والسحر. لكن هل يعاني الناس حقاً من ضرر مغالطاتهم، وهل ستتحسن حياتهم إذا أدركوا وفكروا في طريقهم للخروج منها؟ أم أن الشعور الغريزي هو دليل أفضل لاتخاذ قرارات الحياة من التفكير، مع زيادة مخاطر الإفراط في التفكير والعقلنة؟

بلا شك فإن التقدم المادي في شروط الحياة المختلفة يعتبر دليلاً على أهمية العقلانية، حيث يتضمن التقدم أكثر من مجرد مكاسب في السلامة والرفاهية المادية. وهو يتألف أيضا ً من مكاسب معنوية في كيفية تعاملنا مع بعضنا البعض: في المساواة، والإحسان، والحقوق. لقد تراجعت العديد من الممارسات القاسية والظالمة على مدارالتاريخ.وهي تشمل التضحية البشرية، والعبودية، والاستبداد، والحريم، وربط القدم، والعقوبات الجسدية، والعقوبة السادية، واضطهاد المعارضين، واضطهاد النساء والأقليات الدينية والعرقية والجنسية.

الكتاب: العقلانية: ماهيتها، ندرتها، وأهميتها.

المؤلف: ستيفن بينكر

الناشر: Viking ,2021

عدد الصفحات: 432

لغة الكتاب: الإنجليزية

* كاتب عُملني

استبداد الخبراء: الاقتصاديون، والدكتاتوريون، والحقوق المنسية للفقراء

ويليام إيسترلي

عبدالرحمن الغافري *

على مدى القرن الماضي، كان يُنظر إلى الفقر العالمي إلى حد كبير على أنه مشكلة تقنية، تتطلب فقط الحلول "المتخصصة" الصحيحة. ومع ذلك، في كثير من الأحيان، يوصي الخبراء بحلول لإصلاح المشكلات العاجلة دون مُعالجة العوامل السياسية النظامية التي أدت إلى ظهورها في المقام الأول، علاوة على ذلك، فإنهم ينتجون تواطؤا عرضيًا مع "المستبدين المحسنين"، مما يترك للحكام المستبدين مزيدًا من القوة لانتهاك حقوق الفقراء.

في هذا الكتاب المثير للإعجاب، يكسر أحد العلماء الاقتصاديين المشهورين من أجل القضاء على الفقر العالمي والحقوق التي سُلبت من الفقراء لأجيال. هنا يفحص الخبير الاقتصادي الشهير ويليام إيسترلي جهودنا الفاشلة لمحاربة الفقر العالمي، ويجادل بأنَّ نهج التنمية من أعلى إلى أسفل «المعتمد من قبل الخبير» لم يحرز تقدماً طويلا فحسب، بل أثبت وجود سبب منطقي مناسب لعقود من الزمن. انتهاكات حقوق الإنسان التي ارتكبها المستعمرون، وديكتاتوريو ما بعد الاستعمار، وصناع السياسة الأجانب في الولايات المتحدة، والمملكة المتحدة الذين يبحثون عن حلفاء استبداديين. يوضح الكاتب كيف أن تكتيكاتنا التقليدية لمُكافحة الفقر قد داست على حرية فقراء العالم وقمعت نقاشا حيويا حول الأساليب البديلة لحل الفقر، ويقدم نقدا مدمرا للسجل الفاسد للتنمية الاستبدادية.

في هذا العمل الرائع، يكشف الكاتب عن الأخطاء الجوهرية المتأصلة في نهجنا التقليدي، ويقدم مبادئ جديدة للوكالات الغربية، والبلدان النامية على حد سواء: المبادئ، لأنها مبنية على احترام حقوق الفقراء، لديها القدرة على إنهاء الفقر العالمي مرة واحدة وإلى الأبد.

هذا الكتاب مُثير على عدة مستويات، صمم لتعكير صفو اختصاصيي التطوير المهني، وإحداث تغيير في الخطاب العام بشأن تطوير الاقتصاد. هل الكاتب يقصد حقاً انتقاد المعرفة المتراكمة للعديد من الذين لديهم الخبرة، والذين قاتلوا بشدة لجلب المعرفة التجريبية إلى طليعة التنمية؟ نعم، لأنه يرى المعرفة أو «الخبرة» المتراكمة على أنها مُتحيزة بوعي أو بغير وعي، ضد أولئك الذين يجتهدون - من تلقاء أنفسهم - من أجل النجاح. لا، لأنه يعترف، كما هو مُبين في الاقتباس أعلاه، يمكن لهذه المعرفة - قراءة الخبراء - أن تنقذ الأرواح، وتجعل العالم مكانا أفضل.

التقويم التربوي والبحث، طرق تعليمية في النمو والتنمية، جر التعليم الدولي والمقارن «دراسة إضافية». وهكذا، يحاول المؤلفون فهم الظروف التي يزدهر فيها عدم المساواة والظلم الاجتماعي.

كتب كل من سندوفال، وكونا، وسوريانو وأخيرا سايلو أحد أكثر مشاريع البحث التجريبية شمولا المقدمة في هذا المجلد، ويتعامل مع مخطط التعاقد مع خدمات التعليم في الفلبين. يدرس المؤلفون صراحة ما إذا كان مخطط الشراكة بين القطاعين العام والخاص، قد أفاد المهمشين، وكيف حقق نجاحًا من حيث الكفاءة والإنصاف والحساسية والتماسك الاجتماعي. في حين أن النتائج ليست واعدة من حيث الفوائد للجمهور المستهدف في الفلبين، إلا أن المؤلفين أنهوا فصلهم بقائمة من التوصيات السياسية الدقيقة والملموسة حول كيفية «إصلاح» المخطط بحيث يفيد المهمشين.

أخيرا، يفحص كيرتس ريب مطالبه بامتياز مدارس أوميغا في غانا، حيث يفترض أنها تخدم الفقراء. تم إنشاء الامتياز من قبل رجل الأعمال في مجال التعليم جيمس تويلي، والمستثمر المالي كين دونكوه، في عام ٢٠٠٩، وتلقى دعما ماليا وافرا من صندوق بيرسون للتعليم ميسور التكلفة (PALF). ونتوقع أن التحالف بين أوميغا وبيرسون سيطلق عددا لا يحصى من الدراسات الرائعة في نهاية التعليم، من أجل الصالح العام. في فصله، يدحض رياب الادعاء بأن مدارس أوميغا تمثل «مدارس خاصة منخفضة الرسوم». ويستشهد بمايكل باربر رئيس (PALF) لقوله: «إنها تهدف إلى الربح تماما. لكن لنفعل ذلك بشكل صحيح - فمن المهم إثبات الربح لأننا نريد أن يأتي مستثمرون آخرون». ما يلي هو تحليل رياب الشامل الذي يوضح تفاصيل ميزات امتياز مدارس أوميغا، التي تعد في الواقع جيدة بالنسبة للأعمال، أي توحيد الخدمات، وموثوقية العلامة التجارية، والدفع والتكلفة الرخيصة للعمالة والمعلمين.

وكما ذكرنا أعلاه، تمثل فصول التعليم والخصخصة والعدالة الاجتماعية، مجموعة واسعة من الموضوعات المتعلقة بالخصخصة، دون معالجة مباشرة لمسألة كيفية ارتباط الخصخصة بالإنصاف أو العدالة الاجتماعية. ومع ذلك، فإن مزايا هذا الكتاب تكمن في الأسئلة البحثية المحفزة على التفكير - والتي يتم عرضها في الفصل التمهيدي - وكذلك أبحاثه حول الباحثين في البلدان النامية. هذه ليست مآثر صغيرة لمجلد محرر يفتح آفاقا جديدة من حيث الموضوع بالإضافة إلى تكوين المساهمين فيه.

هذا الكتاب لا يتعلق بإدانة كل الخبرات، وإنما يتعلق بالتمييز بين الخير والشر وطموحات للخبرة في التنمية. يتوافق هذا الكتاب مع القارئ من خلال التركيز على قصص التنمية عبر عدة قرون ماضية. إنها قراءة جيدة عند مقارنتها بالخبرة المهنية. على سبيل المثال، يحدد الفصل الثاني من الكتاب، ومما يشير إليه الكاتب، على أنه جدل أساسي بين اثنين من الاقتصاديين الحائزين على جائزة نوبل منذ أكثر من نصف قرن: جونار ميردال وفريدريك هايك. من وجهة نظر إيستر، ينظر الاقتصاديون إلى العالم من خلال عدسات معاكسة، فالأول يدعم أكثر نهج اشتراكي، ومن أعلى إلى أسفل لـ «الهندسة الاجتماعية»، بينما ركز الأخير على الدفاع عن الحقوق الفردية، وهو نهج أكثر تصاعدية يتضمن «حلولا عفوية» من خلال المنافسة في السوق.

أولئك الذين يعرفون بياض إيسترلي، سوف يرى كبطل منسي إلى حد كبير في التنمية الاقتصادية. هذا لأن إيستر يرى ميردال حايك على النقيض من ذلك - والتركيز المتزايد إلى حد كبير على التنمية الاقتصادية على أنها مستدامة الخبراء المطلعين، والوكالات الدولية الداعمة لهم

خاصة البنك الدولي - كسبب لما يسميه «العمى لانتهاكات الحقوق من قبل المستبدين الاستعماريين» الذين سعوا إلى التنمية المستوحاة من الاستعمار والعنصرية. هذه أشياء قوية، وهي بمثابة أساس لائحة اتهام الكاتب لاقتصادي التنمية المعاصرين وغيرهم من «الخبراء».

ثم يبدأ في نزهة مضيئة - ومدمرة في بعض الأحيان - من خلال تاريخ التنمية، مع التركيز بشكل خاص على المعتقدات العنصرية للكثيرين من الرجال العظماء في الجهود الاستعمارية، وما بعد الاستعمار «لتحسين» العالم. يأخذ، على سبيل المثال، عالم الأحياء البريطاني الليبرالي جوليان هكسلي - الذي أصبح فيما بعد المدير العام لليونسكو - الذي ادعى أنَّ المواطن الأفريقي لديه إيمان طفولي بالأبيض باعتباره كائناً متفوقاً بطبيعته. الكاتب يمضي، في الفصل الثالث، لمناقشة استعمار اليابانيين ولاحقاً الأمريكيين في الصين، وإلى أي مدى أدى إلى ما أسماه نهج الخبير «العلمي» في التنمية الاستبدادية، وفقدان حقوق الإنسان الأساسية، والعوز على المستوى الفردي.

كما يستكمل الفصل الرابع، متتبعا مسارا موازيا في إفريقيا، مع نتائج مماثلة في كثير من الأحيان، تقوم بها أنظمة استعمارية مختلفة. ويصف ما يسميه «المنهج العلمي التنموي، الذي يعمل على جعل النمو الاقتصادي» ذريعة لتأجيل أي مطالب محلية للحقوق السياسية إلى أجل غير مُسمى. بعبارة أخرى، التنمية لها بمثابة وسيلة - واعية وغير واعية - لإقناع قطاعات واسعة من المجتمع (بما في ذلك القيادة العالمية التقدمية)، وأنهم كانوا يفعلون الخير، بينما كانوا في الحقيقة يقدمون الدواء الشافي للمحاولات الفاشلة للتعامل مع واقع قضايا حقوق الإنسان وكرامته.

وفي الفصل الخامس، يتطرق الكاتب إلى إحدى نقاطه الرئيسية؛ العيوب المتأصلة في البنك الدولي (حيث كان يعمل من قبل)، والذي تأسس عام ١٩٤٩. في عمل البنك الدولي، مصطلح «مهمة» لا يزال يستخدم لوصف أنشطة التنمية الخارجية، والتي يرى الكتاب أنه يعزز إيحاءات الحماس التبشيري.

في الواقع، يرى أن إنشاء البنك الدولي في مؤتمر بريتون وودز هو «خطيئة أصلية»؛ لأنه تضمن مادة تأسيسية (المادة الرابعة، القسم ١٠) أجبرته على أن يكون كذلك غير سياسي، وبالتالي فهو تكنوقراطي بحت في نهجه. الكاتب يدعو هذا نهج «اللوح الفارغ»، الذي يزعم أن كونه غير سياسي يعني غير تاريخي، وهكذا، على حد تعبيره «استبدادي» بدلا من «التنمية الحرة».

في هذه المرحلة، وفي الفصول من السادس وحتى الثامن، يرسم الكاتب العديد من الأمثلة التاريخية، من العهد

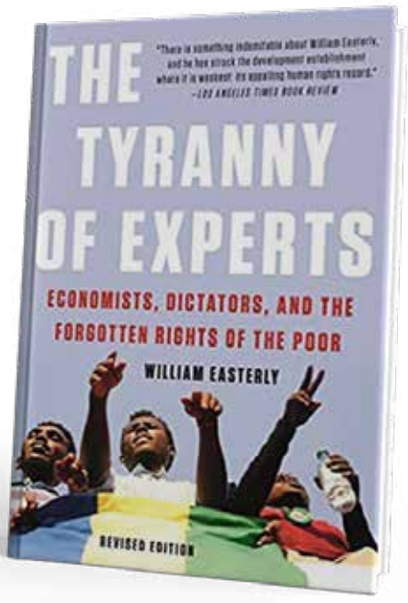

الروماني المقدس، من الإمبراطورية إلى سنغافورة وإثيوبيا، وحتى مدينة نيويورك من القرن السابع عشر إلى الحاضر - في كل مرة تتوقف مؤقتا لتوضيح كيف يجب أن تسير الحرية والتنمية معًا، بينما يمنع القمع من أعلى إلى أسفل التطور. القصص نفسها، والأبحاث التاريخية الواردة فيه مثرية ومقنعة، في بعض الأحيان.

تقدم الأقسام الأخيرة من الكتاب قضية التركيز على الأفراد على النقيض من الأمم. يقول إيستر إنّه ركز جزءا من وقته على مشروع بعنوان «كيف تؤثر السياسات الوطنية على النمو طويل المدى؟» هذا، كما يقول إيستر، يجسد بشكل جيد للغاية «العقلية المتمحورة حول الأمة» للبنك الدولي النهج الاقتصادي المخطط الذي دفع البلدان النامية نحو الإفراط في ذلك، والاقتصادات المخططة. يتابع الكاتب ويقدم نقداً واسع النطاق لجيم يونغ كيم، الرئيس المُعين مؤخرًا للبنك الدولي، والذي يراه إيستر يمثل وجهة النظر المتفق عليها، منذ عقود إلى الآن، أن التصميم الواعي يقدم أفضل الأمل في القضاء على الفقر، عكس السوق المرتكز على الفرد، النهج الذي اعتنقه الكتاب. إنه يقدم مثالا نموذجياً لحالة قائمة على الإنترنت، مشروع التنمية الاقتصادية في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، فيه قادة وخبراء فشلوا في فهم السياق المحلي، وخلقوا بدلا من ذلك» شبابا يشاهدون المواد الإباحية».

يقدم لنا الكتاب العديد من الأمثلة القابلة للاقتباس على نطاق واسع، من التاريخ وثقافة الكيفية التي تنتهي بها خطط الخبراء ذات النوايا الحسنة، أو حتى مع القليل من النوايا كنتائج عكسية. جوابه، ببساطة، هو أن الفقراء يجب أن يحصلوا على نفس الحقوق التي يتمتع بها الأغنياء، وأن تطبيق حقوق متساوية سيكون طريقة أفضل لحل مشاكل التنمية. ينظر إلى التنمية الناجحة على أنها نتيجة للأفراد والعائلات المجتهدين، مع القليل من التدخل الخارجي.

في النهاية، يقدم الكاتب حالة قوية لأهمية عدم الاستماع إلى خبراء التنمية، الذين ربما فعلوا، في رأيه، ممارسات تضر أكثر مما تنفع من حيث التنمية الاجتماعية والاقتصادية، ومن ثم كان استبدادهم.

ما الذي يجب أن يتعلمه القراء من هذا الكتاب؟ لا شك، بالنسبة لأولئك الذين يرون النصف الفارغ من فنجان التطوير، فإنَّ آراء وأمثلة الكتاب ستوفر ذخيرة إضافية، لمقاومة الاستخدام المفرط في التخطيط والغطرسة. أما أولئك الذين نظروا إلى التطوير على أنه نصف كامل، فإنهم يرون أن المخططين والمطورين بذلوا قصارى جهدهم على الرغم من العقبات الرهيبة التي تحد من النجاح.

يطلب الكتاب من العاملين في مجال التنمية الاقتصادية التمييز بين «الطموحات الجيدة والسيئة للخبرة». هذا هدف محترم. ومع ذلك، ما زلنا نتساءل عمن يعرّف الخير والشر، ومن يملك التنمية، وما هو الدور الذي يجب أن تلعبه الوكالات الدولية الكبرى، ومتى يمكن للمعرفة والخبرة أن تحدث فرقا. يُساعدنا هذا الكتاب في تذكيرنا بتاريخ التنمية المتقلب، إلا أنه لا ينبغي أن يصبح أحدث أداة لتفكيك العمل المهم والإيجابي للتنمية الاقتصادية اليوم.

منذ انهيار الكتلة الاشتراكية في عام ١٩٨٩، فإنَّ أبحاث التعليم المقارن استفاد منها مجموعة متزايدة من الأدبيات حول تحولات التعليم، وما بعد الاشتراكية في أوروبا الشرقية، والاتحاد السوفياتي السابق. هذا الأدب له جانب نقدي تناول علاقة ما بعد الاشتراكية بالتنظيرات حول العولمة والتقارب والحداثة واقتراض سياسة التعليم. لقد تحدى أيضاً فهم الزمان والمكان عندنا في تنظير إصلاحات التعليم بشكل سريع في تغيير السياقات الجيوسياسية.

اسم الكتاب: استبداد الخبراء: الاقتصاديون، والدكتاتوريون، والحقوق المنسية للفقراء

المؤلف: ويليام إيسترلي

سنة النشر: 2021 م

دار النشر: بيسك للطباعة والنشر

عدد الصفحات: 432 صفحة

اللغة: اللغة الانجليزية

* كاتب عُماني

الانقسامات السياسية والفوارق الاجتماعية

تأليف جماعي

محمد الحدّاد *

يعدّ هذا الكتاب امتدادا للمشروع الذي استفتحه المؤرخ توماس بيكتي بإصدار دراسته الضخمة «رأس المال في القرن الحادي والعشرين» الصادر سنة 2013، وكنّا قد قدمناه في ملحق مراجعات بعد صدوره. وقد اشتهر شهرة واسعة وترجم إلى عشرات اللغات ومنها اللغة العربية (القاهرة: دار التنوير ومكتبة الفكر الجديد، 2018، 655 صفحة). أما هذا الكتاب الجديد الذي نعرضه اليوم، والصادر بعنوان «الانقسامات السياسية والفوارق الاجتماعية»، فإنه يطرح العلاقة بين مسألة الحيف الاجتماعي والسلوك السياسي.

لنذكر بأنّ الأطروحة التي كان توماس بيكتي قد أثبتها وأصبحت مشهورة هي أن الحيف الاجتماعي قد تعاظم منذ سنة 1980 إلى اليوم، أي منذ بداية السياسات الليبرالية، ليبلغ المستوى الذي كان عليه قبل بداية الحرب العالمية الثانية. وقد استنتج البعض من هذه الأطروحة أن العالم مهدّد بحروب جديدة يقودها الجائعون والمحرومون في العالم. وبطريقة ما، يعود الكاتب هنا ليشرح لماذا لم تحصل هذه الحروب.

يعتمد الكاتب في مؤلفه الجديد، وهو مؤلف جماعي بإشرافه، منهجا في البحث يذكر في العديد من جوانبه بالمنهج المعتمد في الكتاب السابق، فالدراسة تكاد تكون غير مسبوقة في تاريخ العلوم الاجتماعية، إذ إنها تعتمد على أرشيف يمتد من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ٢٠٢٠، ويشمل خمسين دولة (منها أربع دول إسلامية هي باكستان وتركيا والعراق والجزائر)، ويتعلق بخمسمائة عملية انتخابية. قام بيكتي ومجموعة من زملائه وتلامذته بالعمل على هذا الأرشيف الضخم عدة سنوات للخروج بهذه الدراسة الفريدة من نوعها، فهي تقوم على متابعة على الأمد الطويل لتأثيرات للعلاقة بين الحيف الاجتماعي والسلوك السياسي، وتبين هل أن الناس ينتخبون من موقع انتماءاتهم الاجتماعية أم بدوافع أخرى.

لقد تم اختيار الدول المعنية بالدراسة على أساس التنظيم الدوري للانتخابات، كي يمكن استغلال الأرشيف الانتخابي للإجابة عن السؤال المطروح وبطريقة موضوعية وذات مصداقية. وانقسمت الدول المعنية كما يلي: ١٧ دولة من أوروبا الغربية، و٣ دول من أوروبا الشرقية، و٤ دول من أمريكا الشمالية، و٧ دول من أمريكا الجنوبية، و٩ دول من إفريقيا والشرق الأوسط. ووقع اعتماد عنصرين لتقييم الحيف وهما الدخل الفردي للأشخاص والشهادات العلمية التي يحملونها (اعتذر الباحثون لإهمال عنصر ثالث هو المكاسب، لكن هذا العنصر لا يظهر على الإحصائيات الانتخابية). بينما قسمت الأحزاب السياسية التي يصوت لها الناخبون إلى قسمين كبيرين، دعي الأول الأحزاب الاجتماعية- الديمقراطية، ودعي الثاني الأحزاب المحافظة.

من المعلوم أن هذا التقسيم «الطبقي» هو التقسيم الأصلي الذي نشأت عليه الأحزاب السياسة في الغرب ثم انتشر في العالم كله. أي أنّ السياسة قد نشأت على أساس المنافسة بين أحزاب تدافع عن الوضع الاجتماعي القائم وأخرى تسعى إلى تعديله وتغييره لصالح الطبقات الأقل حظا. لكن هل أن هذه الصورة ما زالت سائدة إلى اليوم؟ وكيف نفسر أن الحيف الاجتماعي ما فتئ يتعاظم منذ الثمانينات إلى اليوم حتى بلغ مستواه قبل الحرب العالمية الثانية، مع أن عمليات الاقتراع قد انتشرت في جزء كبير من العالم؟ ولماذا لم يعمل الناخبون على كبح هذا التنامي الضخم للحيف الاجتماعي عبر الأصوات التي يدلون بها في الانتخابات؟

تقترح الدراسة توسيع مفهوم الصراع ليشمل ثلاثة أنواع مختلفة، فالإضافة إلى الصراعات ذات الطابع الطبقي والاجتماعي، برزت في العقود الأخيرة صراعات ذات طابع ثقافي وأخرى ذات خلفيات إقليمية. ولم يعد الناس يحددون مواقفهم السياسية على أساس اجتماعي بحت، فقد أصبحت الأنواع الأخرى من العوامل أساسية أيضاً في تحديد مواقفهم واختياراتهم.

من هنا نتلمس الخيوط الأولى في تفسير القضية المطروحة. فعندما يتحول اهتمام الناس من القضايا الاجتماعية إلى القضايا «الثقافية» (الصراعات الدينية والعرقية والمذهبية وغيرها) والقضايا الإقليمية (دعوات الانفصال أو الصراع على الأقاليم)، فإن فرص تنامي الحيف الاجتماعي تصبح أكبر لأن الاهتمام به يصبح أقل قيمة لدى الناخبين. لقد تنامى الحيف الاجتماعي في العقود الأربعة الأخيرة بالتوازي مع تنامي الصراعات المتصلة بالعرق والدين والهوية. وكثيرا ما أصبح الموقف السياسي مرتبطًا بهذا الصنف الثاني من العوامل، بينما تتراجع إلى مرتبة أدنى مسألة السياسات التي تقترحها الأحزاب للتقليص من التفاوت والحيف في المجتمع. وتنسحب هذه المعاينة أيضًا على الصراعات الإقليمية التي حجبت بدورها القضايا الاجتماعية وأخرتها إلى درجة ثانية، حتى في بلدان غربية مثل إسبانيا.

يؤكد أصحاب الدراسة حينئذ على ضرورة تغيير مفهوم الصراع في العلوم الإنسانية، وتجاوز التعريفات التي وضعها المؤسسون للعلوم السياسية المعاصرة، على غرار لسبيت (Lipset) وروكان (Rokkan)، لأن الواقع قد تغير اليوم وأصبح أكثر تعقيدا بفعل تعدد العناصر المتحكمة في الموقف السياسي للمواطنين، وهي عناصر تتنازع التأثير فيه وتفرض سياسة متعددة الأبعاد (multidimensionnelle) ومختلفة عن المفهوم الكلاسيكي السائد في العلوم السياسية.

على سبيل المثال، لم تعد الطبقة العاملة في البلدان الغربية تصوّت كتلة واحدة لصالح الأحزاب اليسارية. لقد حصل شرخ كبير قسم هذه الطبقة إلى قسمين: قسم ظل يواصل التصويت للأحزاب اليسارية من منطلق تغليب الموقف الاجتماعي على العوامل الأخرى، وقسم يغلب عامل الهوية ويعتبر أن موضوع غزو العمالة الأجنبية والهجرة من البلدان ذات الثقافات المختلفة القضية الأساسية في تحديد الموقف السياسي. وهذا القسم أصبح يتّجه إلى أحزاب أقصى اليمين ويعزز صفوفها ويمنحها أصواته عند الانتخابات. والنتيجة أن الأحزاب اليسارية التي تسعى إلى مقاومة الحيف الاجتماعي تجد نفسها ضعيفة في منافسة الأحزاب المحافظة التي تعبر عن مصالح الأغنياء والطبقات المحظوظة.

وتستكشف الدراسة ظواهر أخرى عديدة سنقتصر منها على عرض اثنتين. فإلى حدّ الثمانينيات من القرن العشرين، كانت الشهادات العلمية والدخل الفردي للأفراد متلازمين، بمعنى أن الناس الذين يحملون شهادات علمية عليا والناس المتمتعين بدخل فردي كبير يشتركان في التصويت لنفس الأحزاب ويعتبران مصالحهم واحدة. لكن الأمر تغير منذ الثمانينيات وأصبح الجزء الأكبر من أصحاب الشهادات العليا يصوتون مع الفقراء والطبقات المحرومة، ويرون أنفسهم أقرب إلى هذه الفئات، فلم تعد الشهادات العلمية تضمن لهم دخلا فرديا محترما، وذلك في كل بلدان العالم.

ظاهرة أخرى مثيرة للانتباه هي أن التوجه الذي تشهده

البلدان الغربية يبدو في مسار عكسي بالمقارنة بالتوجه الذي تشهده البلدان الأخرى. فالغرب هو الذي عاش قبل الآخرين ظروف الثورة الصناعية التي أنتجت تقابلا طبقيا حادا بين الطبقة الرأسمالية وطبقة العمال، ونشأت السياسات الانتخابية والتنظيمات السياسية التمثيلية في غمار المنافسة بين الفئات المستفيدة من الثورة الصناعية والفئات المتضررة منها التي تسعى إلى تحسين وضعها الاجتماعي، لذلك كانت الأحزاب الكلاسيكية مقسمة بين يمين ويسار، أو عمال ومحافظين، أو ديمقراطيات مسيحية وديمقراطيات اجتماعية. لكن الوضع اليوم يتجه نحو التقابل الثقافي، بل الإقليمي أحيانا. فموضوع الهجرة هو الموضوع الرئيسي في المنافسات السياسية في أوروبا اليوم، بل إن بلدا مهما في حجم إسبانيا أصبحت الحياة السياسية فيه مرتبطة ارتباطا وثيقا بمسألة انفصال إقليم كاتالونيا.

وعلى عكس المتوقع، فإن البلدان غير الغربية تتجه أكثر فأكثر إلى تجاوز الصراعات العرقية والانفصالية والاهتمام أكثر بقضية الحيف الاجتماعي. وربما شدت البلدان الإسلامية الأربعة المدروسة في هذا الكتاب عن هذا التعميم ولا يبدو من اليسير تحديد خطوط واضحة لتوجهاتها. مع الأخذ بعين الاعتبار أن المدى الزمني في هذه البلدان أقصر بكثير بحكم حداثة الانتخابات فيها. فقد امتد من سنة ١٩٩١ إلى ٢٠١٨ بالنسبة إلى تركيا، ومن سنة ٢٠٠٥ إلى ٢٠١٨ بالنسبة إلى العراق ومن سنة ٢٠٠٢ إلى ٢٠١٨ بالنسبة إلى الجزائر. ولا ندري لماذا لم تحتسب انتخابات ١٩٨٩ مع أنها لا تقل قيمة عن لاحقاتها. أما في تركيا فقد انتظمت أولى انتخابات سنة ١٩٥٠ لكن يبدو أن الوثائق غائبة فلم يتيسر اعتمادها في الدراسة. وفيما يتعلق بالوضع التركي، يستنتج الباحثون أن نسبة التدين في هذا البلد لم ترتفع مع وصول حزب ذي توجه إسلاموي إلى الحكم، بيد أن براعة حزب العدالة والتنمية تمثلت أساسا في الجمع بين استقطاب الفقراء والمهمشين من جهة والبورجوازية الليبرالية من جهة أخرى، الأولى بخطاب سياسي يعدها بالمساعدة وتحسين أوضاعها والثانية بوعود بتحسين ظروف الاستثمار. بالمقابل، تستنتج الدراسة من خلال الإحصاءات الانتخابية أن أصحاب الشهادات العليا وكبار الأغنياء لا يُصوتون في الغالب لهذا الحزب، عكس التوجه الذي أشرنا إليه في أغلب بلدان العالم.

هل يمكن أن نستخلص من الدراسة أن الطريقة التي ساعدت على ارتفاع الحيف الاجتماعي في العقود الأربعة الأخيرة دون ارتفاع منسوب الاحتجاج عليه تمثلت في توجيه النقاش السياسي إلى قضايا الدين والهوية، بل تأجيج الصراعات من هذا الصنف لحجب تراجع العدالة الاجتماعية؟ تتحفظ الدراسة على كل استنتاج من هذا الصنف كي لا تفقد طابعها الموضوعي والأكاديمي. فقد تعبّر تلك الأوضاع عن تطور طبيعي في اهتمامات الناس وطرق تشكل آرائهم. ويمكن أن

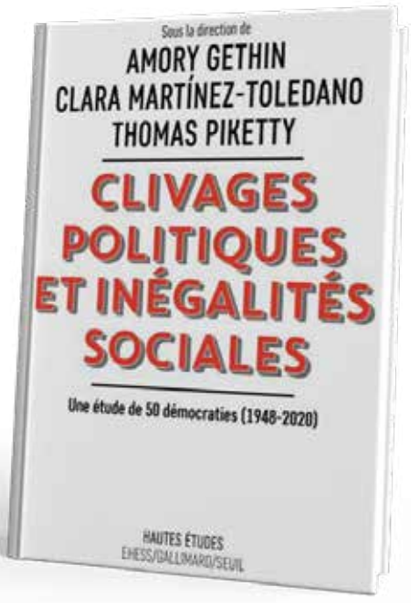

نفترض أن الارتفاع في مستوى العيش من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٨٠ دفع إلى الاهتمام بقضايا أخرى غير تلك المرتبطة بمستوى العيش والدخل. لذلك جاءت الفترة الممتدة من سنة ١٩٨٠ إلى ٢٠٢٠ متعارضة مع الفترة المذكورة. وهناك احتمالات تفسيرية عديدة يمكن طرحها انطلاقا من نتائج الدراسة الإحصائية المستمدة من الوثائق الانتخابية.

ثمة أيضا عنصر مهم تشير إليه خاتمة الدراسة وهو تغيّر العالم بعد نيل أكثر البلدان استقلالها في الخمسينيات. صحيح أن أوروبا عاشت آنذاك ما يدعى بالثلاثين المظفرة (١٩٤٥- ١٩٧٥)، أي ثلاثين سنة من الازدهار الاقتصادي المطرد لم تتوقف إلاّ مع الأزمة النفطية التي أدخلت الاقتصاديات الأوروبية في مرحلة اضطرابات. وطوال تلك الفترة، كانت السياسة فيها منقسمة بين طرفين، اليمين الليبرالي واليسار الاشتراكي. لكن نهاية الاستعمار قد أججت أيضا قضايا الهوية في بقية العالم ثم انعكست هذه القضايا على أوروبا ذاتها لاحقا، بسبب موجات الهجرة المكثفة المتواصلة إلى اليوم، النظامية منها وغير النظامية. وربما زادت العولمة من تصدير قضايا العوالم غير الغربية إلى الغرب، لكن الأزمات الاقتصادية في الغرب ذاته قد ساهمت بطريقة ما في ذلك، لأن هذه الأزمات حولت الهجرات المكثفة من عامل إيجابي على تلك الاقتصاديات إلى عامل سلبي، بفعل أن إحدى النتائج الأساسية لتلك الأزمات هي استفحال البطالة التي كانت غائبة تقريبا أثناء الثلاثين المظفرة، بما جعل التنافس في الحصول على فرص العمل يتحول إلى صراعات على الهوية بين المجموعات العرقية المتعايشة في الغرب.

وبالمثل، يمكن أن نتساءل ألا يكون انهيار قيمة الشهادات العلمية نتيجة متوقعة لـ«دمقرطة» التعليم وانتشاره بين كل الطبقات، فإذا ما ارتفع عدد الحاصلين على الشهادات ارتفاعا كبيرا فإنهم يفقدون وضعية الانتماء إلى النخبة في المجتمع ويتغير موقفهم السياسي من المحافظة على السائد إلى الرغبة في تغييره. وبما أن ظاهرة انتشار التعليم ظاهرة عالمية فمن المنطقي أن نجد نتائجها البعيدة متقاربة في العالم كله.

لكن نقطة الضعف ربما كانت الاعتماد على وثائق انتخابية من بلدان لا تحظى جميعها بنفس القيمة والمصداقية، كما أن بلدانا كثيرة ظلت خارج مجال الدراسة لغياب الانتخابات الدورية والوثائق الانتخابية فيها. ولقد اعتذر الباحثون عن هذا الأمر بكونهم لم يجدوا طريقة أخرى لتوفير مادة للبحث بهذا الشكل الواسع زمنيا ومكانيا. ويلاحظ أيضا أن الدراسة لا تبرز بوضوح اختلاف المواقف السياسية إذا ما اعتمدنا العامل الجندري (الجنس) أو السن، وهي اختلافات ذات دلالة، وقد اعتمدت فقط في دراسة المواقف السياسية في البلدان الغربية، وبينت مثلا أن النساء في الغرب كن يصوتن في الخمسينيات للأحزاب المحافظة ثم انقلب موقفهن انقلابا تاما لصالح الأحزاب اليسارية، بسبب تبني هذه الأحزاب للقضايا النسوية. ونلاحظ هنا أن دراسة المواقف السياسية من منظور الاختلاف الديني في المجتمعات الغربية انتهت إلى نتيجة أن تصويت الجاليات المسلمة في الغرب لا يختلف عن تصويت غيرهم.

أخيرا قد يؤاخذ على هذه الدراسة الضخمة أنها اقتصرت على نقد منوال ليسبت-أوركان المعتمد في الدراسات السياسية للصراعات الاجتماعية ودعت إلى تغييره لكنها لم تقدم بديلا واضحا عنه.

والرأي عندنا أنّ هذه الدراسة ستكون منطلقا مهما للتعمق في العلاقة بين الحيف الاجتماعي والموقف السياسي، بما قدمته من نتائج طريفة واعتمدته من مفاهيم مجددة وطرائق بحث دقيقة.

عنوان الكتاب:
الانقسامات السياسية والفوارق الاجتماعية
التأليف: جماعي بإشراف توماس بيكتي وكلارا مارتينيز توليدانيو وأموري جيتهين
النشر: مشترك بين دار النشر سوي ودار النشر غاليمار ومدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية بباريس
تاريخ النشر: نيسان/ أبريل 2120.
عدد الصفحات: 590 صفحة
اللغة: الفرنسية

* أستاذ كرسي اليونسكو للدراسات المقارنة للأديان

عدم المساواة وسوق العمل: حالة المنافسة الكبرى

شارون بلوك وبنيامين هاريس

زينب الكلبانية *

على مدى عقود، تراجعت المنافسة في سوق العمل في الولايات المتحدة، ونتيجة لذلك عانى العمال الأمريكيون من بطء نمو الأجور وتراجع جودة الوظائف. في حين يُشار تقليديا إلى تباطؤ نمو الإنتاجية، وتصاعد العولمة، وانخفاض تمثيل النقابات كعوامل لهذا الاختلال التاريخي في القوة الاقتصادية، فإنَّ المنافسة الضعيفة في سوق العمل يُعترف بها بشكل مُتزايد كعامل أيضًا.

يضع هذا الكتاب الذي أعده خبراء مشهورون، العواقب القانونية والاقتصادية لهذا الاختلال في التوازن، ويُقدم سلسلة من الإصلاحات المطلوبة بشكل عاجل لكل من قوانين العمل، ومكافحة الاحتكار لتحسين النتائج بالنسبة للعمال الأمريكيين. وتشمل هذه الأجور الأعلى، وأماكن العمل الأكثر أمانًا، وزيادة القدرة على الإبلاغ عن انتهاكات العمل، وزيادة الحركة، والمزيد من الفرص للعمال لبناء القوة، وتحسين حماية العمال بشكل عام.

سوف تثير اللامساواة وسوق العمل اهتمامَ أي شخص يهتم ببناء برامج اقتصادية تقدمية أو لديه اهتمام واضح بسياسة العمل. كما أنها ستجذب أي شخص يأمل في التأثير، أو توقع البرامج التقدمية التي تشتد الحاجة إليها في الولايات المتحدة. يوفر النطاق غير المعتاد للكتاب وصفات، كما يشير جوزيف ستيجليتز الحائز على جائزة نوبل في المقدمة، ترسم مسارا لإعادة توازن القوة، ليس فقط في اقتصادنا، ولكن في ديمقراطيتنا.

تميل أسواق العمل في الاقتصادات الرأسمالية بشكل أساسي ضد قدرة العمال الأفراد على المساومة بشكل فعال مع أصحاب العمل. لا يجب التلاعب في السياسة لأصحاب العمل لمنحهم نفوذا خاصا في أسواق العمل؛ بدلا من ذلك، تمنحهم طبيعة أسواق العمل هذه نفوذا. في الماضي، عندما كان النمو الاقتصادي مشتركا على نطاق واسع بين السكان، كان ذلك لأن صانعي السياسة فهموا هذا التباين الأساسي، واستخدموا أدوات السياسة لتعزيز نفوذ العمال وقدرتهم على المساومة. على العكس من ذلك، نتج ارتفاع عدم المساواة ونمو الأجور الهزيل في العقود الأخيرة عن تجريد هذه السياسات من حصن قوة العمال في سوق العمل.

«قوة احتكار الشراء» - النفوذ الذي يتمتع به أصحاب العمل لتحديد رواتب عمالهم - هو مُساهمة قيمة في فهمنا لعدم التناسق المتأصل في أسواق العمل. ومع ذلك، غالباً ما يكون مصطلح «احتكار الشراء» مصطلحا محيرا، حتى بالنسبة للكتاب والباحثين الاقتصاديين الأكثر ذكاء، وغالبا ما يتم استخدامه فقط لوصف الأسواق المركزة (أي حيث يوجد عدد قليل نسبيا من أصحاب العمل). يمكن أن يؤدي تركيز السوق بالفعل إلى قمع أجور العمال، ولكن قوة صاحب العمل موجودة حتى في الأسواق التي يوجد بها الكثير من أرباب العمل. إذا تمَّ الاعتراف فقط بالمفهوم الضيق لـ «قوة احتكار الشراء»، وركز صانعو السياسات فقط على التدخلات التي تستهدف تأثير تركيز السوق (مكافحة الاحتكار، على سبيل المثال)، فعندئذ قد لا تحصل التدابير الأخرى التي يُمكن أن تُعيد توازن القوى في أسواق العمل بشكل أكثر فعالية.

ما الذي يمكن فعله حيال ذلك؟ لا يوجد دواء سحري واحد لاستعادة نفوذ العمال وقدرتهم على المساومة في أسواق العمل. يجب أن يلتزم صانعو السياسات بالعمل على كل هامش متاح، بما في ذلك استعادة العمالة الكاملة الحقيقية كأولوية لسياسة الاقتصاد الكلي؛ وإصلاح قانون العمل حتى يتمكن العمال الذين يرغبون في تشكيل نقابة من المساومة الجماعية لتحسين أجورهم وظروف عملهم من القيام بذلك؛ ورفع الحد الأدنى للأجور؛ وتعزيز إنفاذ معايير العمل وقوانين الحقوق المدنية في مكان العمل.

منذ عام ١٩٧٩، شهد ٩٠٪ من القوة العاملة الأمريكية تقلص رواتبهم بشكل جذري كحصة من إجمالي الدخل. في عام ١٩٧٩، كانت هذه الحصة ٥٨٪، ولكن اعتبارًا من عام ٢٠١٥ تقلصت إلى أقل من ٤٧٪. حجم الأموال التي تمثلها هذه الخسارة مذهل؛ لو كانت حصة عام ١٩٧٩ ثابتة، لكان أدنى ٩٠٪ من القوة العاملة الأمريكية سيحصل على ما يقرب من ١,٣٥ تريليون دولار من دخل العمل الإضافي في عام ٢٠١٥، أو حوالي ١٠٨٠٠ دولار لكل أسرة.

ما الذي حدث في الاقتصاد الأمريكي، وأدى إلى هذا الانهيار في رواتب ٩٠٪؟ يقترح الكتاب أن الاستعارة الجيدة هي لعبة شد الحبل، حيث يكون ٩٠٪ من العمال الأدنى في جانب، ومديرو الشركات ومالكو رأس المال (اختزال هاتين المجموعتين كأرباب عمل) في الجانب الآخر. النتيجة التوزيعية النهائية لشد الحبل، بالطبع، هي ببساطة القوة النسبية لكل جانب، وعلى هذه الأسس فإن أقل من ٩٠٪ قد خسروا أرضية هائلة لصالح أرباب عملهم. لكن هذا يثير ثلاثة أسئلة رئيسية:

هل القوة التي استخدمها أرباب العمل في لعبة شد الحبل التوزيعية هذه أصبحت أقوى، أم أن القوة التي يمارسها العمال العاديون أصبحت أضعف؟ في حين أن النتيجة النهائية للمساومة تتوقف فقط على القوة النسبية، فإنَّ اتخاذ قرارات سياسية تهدف إلى إعطاء العمال العاديين فرصة عادلة لتحقيق مكاسب في الأجور يتطلب تشخيصا صحيحا ودقيقا لما تغير في العقود الأخيرة.

ما هو الدور الذي لعبته السياسة في منح مزايا إضافية لهذا الطرف أو الآخر؟ هل نمت القوة النسبية لأصحاب العمل في العقود الأخيرة بسبب التغيرات التكنولوجية غير السياسية؟ هل قام صانعو السياسات بتسليم أرباب العمل المرابط المسننة لمنحهم شراء إضافيا في لعبة شد الحبل التوزيعية، على سبيل المثال، من خلال السماح لتركيز الصناعة بالمضي قدما دون رادع من خلال إجراءات مكافحة الاحتكار؟ أو هل قام صانعو السياسات بتلوين الأرضية تحت العمال، على سبيل المثال، بالسماح لقانون العمل بالتلاشي كضامن فعَّال لحقوق العمال في التنظيم الجماعي؟

هل يمكننا حل المشكلة ببساطة عن طريق تفكيك تركيز سوق العمل - لجعل ساحة اللعب أكثر «تنافسية» - ثم السماح لأسواق العمل بالتصحيح الذاتي؟ وصف المراقبون الاقتصاديون أدبيات اقتصادية جديدة ومثيرة عن تركز السوق في بعض الأحيان على أنها تقدم التفسير السائد لاتجاهات الأجور المعاكسة في العقود الأخيرة. الحصول على أجور العمال النموذجية تتزايد مرة أخرى. فهل من الممكن تحقيق مسابقة تنافسية «عادلة» بين العمال وأرباب العمل من شأنها أن تؤدي إلى نتائج توزيع أكثر إنصافا بمجرد محاولة ترويض سلطة صاحب العمل؟ أم أن أسواق العمل الرأسمالية تميل جوهريا ضد العمال، وهل يمكن أن تكون مسابقة التوزيع غير «عادلة» حقاً دون أن يكون صانعو السياسة مستعدين للتأثير على جانب العمال؟

كانت إجابات الكتاب المختصرة على هذه الأسئلة هي: كان أكبر تغيير في القوة النسبية بين العمال العاديين، وأرباب عملهم في العقود الأخيرة، هو انهيار قوة العمال. هناك بعض الأدلة على زيادة قوة صاحب العمل المطلقة، على سبيل المثال، من خلال زيادة تركيز السوق، لكن وجهة نظر المؤلفين هي أنَّ التغيير الأكبر يظل انهيار قوة العمال. كان هذا الانهيار لقوة العمال مدفوعا بشكل كبير بقرارات سياسية واعية قوضت عمدا المؤسسات والمعايير التي عززت في السابق النفوذ الاقتصادي، والقدرة التفاوضية للعمال العاديين؛ لم تكن

مدفوعة ببساطة بقوى السوق غير السياسية. لا يجب أن تكون نقطة انطلاق السياسة الاقتصادية أسواق عمل متوازنة - وليس بالضرورة تنافسية -. لا يمكن وصف العديد من التغييرات السياسية التي أضعفت سلطة العمال بأنها ببساطة «غير تنافسية» في حد ذاتها. في الأسواق التنافسية في كتب الاقتصاد، يفتقر كل من أرباب العمل والموظفين إلى القوة. لكن في أسواق العمل الواقعية، نادرا ما يفتقر أصحاب العمل إلى القوة، ورؤيتنا القوية هي أنَّ صانعي السياسات يجب أن يهتموا أكثر بموازنة قوة سوق العمل بين أصحاب العمل، والعمال أكثر من مُحاولة خلق أسواق عمل تنافسية بالمعنى الحرفي للكلمة.

في بقية هذا الملخص، يتوسع المؤلفان في هذه الإجابات، ويستكشفان أيضاً كيف تتناسب الأدبيات الاقتصادية الجديدة حول تأثير تركيز السوق مع فهمنا لمصادر عدم المساواة المتزايدة، واختلال توازن القوى في سوق العمل. استنتاج المؤلفين فيما يتعلق بهذه الأدبيات الجديدة هو أنها صارمة، ومفتوحة للأعين وتعزز إلى حد كبير الإجابات على الأسئلة المثارة أعلاه بدلاً من قلبها.

لماذا من غير المرجح أن يفسر تركيز أصحاب العمل المتزايد الاتجاهات طويلة المدى؟ اجتذبت الأدبيات التجريبية الحديثة الكثير من الاهتمام لفرضيتها القائلة بأنَّ التركيز المتزايد في السوق قد عزز قوة أصحاب العمل وقمع نمو الأجور. لقد فحصت هذه الأدبيات التركيز في كل من أسواق المنتجات (قوة الاحتكار)، وأسواق العمل (أحد أشكال قوة احتكار الشراء). في حين أن هذا الفحص لتركيز السوق مثير ومرحب به، فإنَّ إلقاء نظرة فاحصة على النتائج التجريبية، من شأنه أن يجادل بأن تركيز السوق في حد ذاته من غير المحتمل أن يكون قادرا على تفسير الاتجاهات الأكبر في أسواق العمل الأمريكية، مثل الفجوة المتزايدة بين الإنتاجية على مستوى الاقتصاد والأجور للعمال العاديين.

تعني زيادة قوة الاحتكار أنه يُمكن للشركات رفع الأسعار التي يدفعها المستهلكون، وزيادة أرباح الشركات. ينتج عن هذا تحول في الدخل القومي نحو مالكي رأس المال والابتعاد عن العمال، أي تآكل نصيب العمال من الدخل، وليس زيادة عدم المساواة في التعويض ضمن حصة العمالة من الدخل. تعني زيادة قوة احتكار الشراء أن الشركات يمكنها تحديد أجور أقل مما يمكن أن تكون قادرة عليه في سوق عمل أكثر تنافسية، مما يؤدي أيضًا إلى تحول الدخل القومي بعيدًا عن العمال. بعبارة أخرى، إذا كان التركيز المتزايد هو المحرك الرئيسي للزيادة في فجوة الإنتاجية والأجور منذ السبعينيات، فإننا نتوقع أن نشهد تآكلا كبيرًا في نصيب العمالة من الدخل.

التحذير في هذا التحليل هو أنَّه يفترض أن تركيز سوق العمل يُؤثر على جميع العمال بالتساوي، وبالتالي لا يزيد من عدم المساواة في التعويض. ولكن إذا كان تركيز سوق العمل، على سبيل المثال، أكثر وضوحاً في القطاعات الاقتصادية التي توظف بشكل غير متناسب عمالا أقل اعتمادا، فيمكن للتركيز نظريًا أن يساهم في زيادة عدم

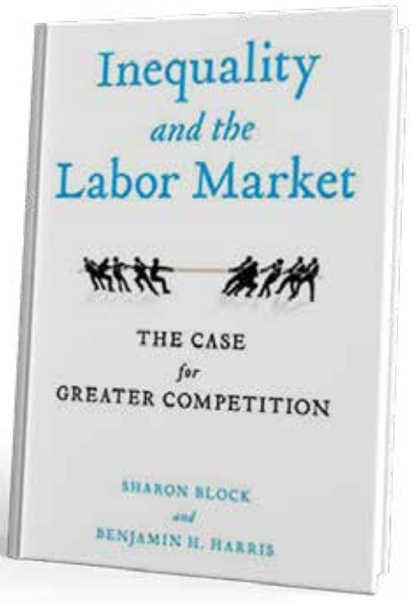

المساواة في التعويضات. إن الفحص التجريبي لتأثير تركيز سوق العمل على عدم المساواة في التعويض هو بالتالي مرشح رئيسي لمزيد من البحث.

على الرغم من هذا التحذير، يبدو بالتأكيد من العدل استخدام التحول من دخل العمالة إلى دخل رأس المال كبديل لنطاق تأثير التركيز على سوق العمل. يوضح تحليل هذين المكونين للفجوة بين الإنتاجية والأجور (تآكل نصيب العمالة من الدخل وزيادة عدم المساواة في التعويض) أنَّ العمال النموذجيين فقدوا أرضا كبيرة من خلال كلتا القناتين منذ سبعينيات القرن الماضي، لكن زيادة عدم المساواة في التعويض شكلت الفارق الشاسع في غالبية الفجوة. على وجه الخصوص، بين عامي ١٩٧٣ و٢٠١٤، شكّل تزايد عدم المساواة في التعويضات ٨٣,٥٪ من نمو فجوة الإنتاجية والأجور، في حين أن تآكل حصة العمالة من الدخل يفسر حوالي سدس الفجوة ١٦,٥٪. إذا كان التركيز المتزايد على المنتجات وسوق العمل هو المحرك الأساسي لارتفاع عدم المساواة خلال هذه العقود الأربعة، فيبدو أن تآكل حصة العمالة كان يجب أن يلعب دورا أكبر بكثير في نمو فجوة الإنتاجية والأجور. ومع ذلك، فإنَّ مساهمة تآكل حصة العمالة في هذه الفجوة بعد عام ٢٠٠٠ أكبر مما كانت عليه خلال الفترة بأكملها، لذلك فمن الممكن نظرياً أن التركيز المتزايد خلال تلك الفترة الزمنية يؤدي إلى زيادة الوزن في تفسير اتجاهات الأجور الكبيرة.

ختامًا، قد يعرب بعض الاقتصاديين وواضعو السياسات، عن عدم ارتياحهم للرأي القائل، بأن الجوانب السلبية لانحراف واحد عن الأسواق «التنافسية» (إما احتكاكات سوق العمل، أو تركيز السوق، أو مصدر آخر لقوة صاحب العمل) يجب مواجهتها من خلال إدخال نقص آخر في السوق (على سبيل المثال، النقابات أو حد أدنى ملزم للأجور). لكن هذا القلق لا مبرر له. تقول «نظرية ثاني أفضل» بوضوح أنه بمجرد خروج الأسواق على الإطلاق من المنافسة الكاملة، يمكن زيادة الكفاءة عن طريق المزيد من الابتعاد. على سبيل المثال، في حالة احتكار الشراء في أسواق العمل ذات الأجور المنخفضة، يمكن أن تؤدي زيادات الحد الأدنى للأجور التي أقرتها التشريعات إلى نقل الأجور إلى مستويات أكثر كفاءة وزيادة العمالة.

على مستوى الاقتصاد الكلي، يبدو أن هذا الادعاء بأن تجريد العمال من حصون قوّتهم قد فشل في تحقيق مكاسب في الكفاءة يدعم بشكل جيد للغاية بالأدلة. في حين أن العديد من التغييرات في السياسة التي حدت من القوة السوقية للعمال، منذ سبعينيات القرن الماضي تم إجراؤها صراحة باسم البحث عن الكفاءة، فإن معدل نمو الإنتاجية (مقياس لمقدار الدخل الناتج في ساعة العمل، وهو الأكثر شيوعا من مقياس الاقتصاد الكلي للكفاءة الاقتصادية) تباطأ بشكل جذري في السنوات التي تلت منتصف السبعينيات، وقد انعكس هذا التباطؤ لفترة وجيزة في أواخر التسعينيات من خلال الاستثمار الكبير في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المرتبط باعتماد الإنترنت على نطاق واسع، وبمرور فترة من تشديد أسواق العمل. ولكن سرعان ما فشلت هذه الزيادة القصيرة، واستمرت الإنتاجية في النمو بشكل أبطأ بكثير مما كانت عليه في الفترات السابقة، عندما كانت السياسة تدعم بوعي نفوذ العمال العاديين. باختصار، لم تؤد حركة السياسة الرامية إلى إضعاف العمال إلى نمو أقل تساويا فحسب، بل ارتبطت أيضا بنمو أبطأ بشكل ملحوظ.

عندما يؤكد المؤلفان أنَّ معظم التغيير في السياسة الذي أدى إلى عدم المساواة وبطأ النمو وركز على إضعاف العمال، وأن السياسة في المستقبل تحتاج إلى العمل لإعادة قوة العمال، فإنهما بالتأكيد لا يقصدان أن على المرء أن يتجاهل فرص السياسة المحتملة التي يمكن أن تتآكل بها سلطة صاحب العمل (على سبيل المثال، من خلال إنفاذ أقوى لمكافحة الاحتكار). لكن الفرص الأكبر هي على الأرجح تلك التي تؤدي إلى مزيد من التوازن في سوق العمل في القوة بين أصحاب العمل والعمال، من خلال زيادة القوة العاملة، وليس محاولة تحريك سوق العمل نحو نموذج تنافسي لا يمكن تحقيقه.

عنوان الكتاب: عدم المساواة وسوق العمل: حالة المنافسة الكبرى

المؤلف: شارون بلوك وبنيامين هاريس

دار النشر: مطبعة معهد بروكينغز

تاريخ النشر: 6 إبريل 2021

اللغة: اللغة الإنجليزية

عدد الصفحات: 261 صفحة

* كاتبة عُمانية

القيم: بناء عالم أفضل للجميع

مارك كارني

وليد العبري *

يُعد هذا الكتاب الذّي أعده المحافظ السابق لبنك إنجلترا، مُساهمة مرحبًا بها للغاية في النقاش العام حول الكيفية التي نرغب في العيش بها، مع استعادة السيادة التي من المفترض أن تأتي بعد خروج المملكة المتحدة من الاتحاد الأوروبي، تواجه البلاد تحدياً لتحديد أولوياتها.

ما الذي نريده، من حيث جودة الحياة التي نتمناها، ودرجات عدم المساواة التي نتحملها، وحدود الإقصاء والاندماج التي سنقبلها؟ أصبحت هذه التحديات أكثر واقعية من خلال تأثير جائحة كورونا، وقد كشفت استجابة الدولة لها عن أولوياتها التشغيلية: حماية NHS فيما يتعلق بالحفاظ على الاقتصاد؛ وتهميش قطاع الرعاية بالنسبة إلى NHS؛ وعدم القدرة على الصمود في توفير التعليم الأساسي مقارنة بالقطاع الجامعي. يدعو الحجم الكبير لكارني، في ستة عشر فصلاً في ثلاثة أقسام، إلى دراسة موسعة للقيم التي سنطلبها في التعافي، والتي يرغب في أن نتبناها. وهو يدافع عن أسباب التضامن، والإنصاف، والمسؤولية، والمرونة، والاستدامة، والديناميكية والتواضع.

يشير القسم الأول إلى صعود اقتصاد السوق، وما نتج عنه من اتجاه لتقليل القيم إلى فئة واحدة من القيمة الاقتصادية، مقاسة بالسعر. هذا جزء من معنى «S» بين قوسين في عنوان الكتاب. يستعرض القسم الثاني أزمات القيم الرئيسية الثلاث في السنوات الأخيرة: الأزمة المالية العالمية، وأزمة كورونا وأزمة المناخ. والثالث له أهمية خاصة لكارني، الذي تولى دور المبعوث الخاص للأمم المتحدة للعمل المناخي والتمويل. كما يقدم المشورة لرئيس الوزراء، في التحضير للدورة السادسة والعشرين لمؤتمر الأطراف المقرر عقده في جلاسكو هذا العام. في كل هذه الأزمات، يتم تسليط الضوء على أسئلة القيمة: «تغير المناخ يضع في تدريب حلقة مفرغة، يؤدي فيها ارتفاع مستويات سطح البحر، والطقس الأكثر قسوة إلى اتلاف الممتلكات، وإجبار الهجرة، وإضعاف الأصول، وتقليل إنتاجية العمل».

والآن كشفت أزمة كورونا عن الحماقة المأساوية، المتمثلة في التقليل من قيمة المرونة، وتجاهل المخاطر النظامية. يوضح القسم الثالث الآثار المترتبة على القيادة القائمة على القيم، وشركات الأعمال، والمستثمرين، والبلدان. إنه يطمح إلى ما يسميه «الصدفة الإلهية »، من «العمل الجيد بفعل الخير»، باعتباره طموحا للشركات التي يجب أن تراعي الحد الأدنى لقيمة المساهمين، بينما تأخذ في نفس الوقت حول المسؤوليات تجاه أصحاب المصلحة في المجتمع الأوسع. يشارك في تفكير موسع حول الواجب الائتماني للمديرين التنفيذيين، المكلفين بخدمة مصالح الشركة. ولكن ما هي مصالح الشركة، وكيف يتم تحديدها؟ على سبيل المثال، المصالح طويلة الأجل للاستدامة، والقبول الاجتماعي، التي هي شروط للأداء الاقتصادي البحت للشركة ليست اقتصادية بطبيعتها. في بعض البلدان، يستوعب المشرعون وجهة نظر أصحاب المصلحة الأوسع نطاقا؛ لغرض الأعمال التجارية في التشريعات. يستشهد كارني بمهمة المؤسسة الفرنسية، والاستخدام الذي استخدمه من قبل منتج الطعام الفرنسي دانون، تحت قيادة إيمانويل فابر كرئيس تنفيذي. من المؤسف أنه منذ أن ذهب الكتاب إلى المطبعة، تم فصل فابر من منصب الرئيس التنفيذي من قبل مجلس الإدارة في مارس ٢٠٢١، مما أدى إلى استسلام ضغوط المستثمرين الناشطين، الذين يسعون إلى تحقيق عوائد مالية أفضل. بطريقة ما، هذا يؤكد النقطة التي أشارها كارني: علينا أن نجد طرقا لتحقيق مجموعة من القيم، وألا نكون عالقين في موقف يضطر فيها إلى دفع بعضها على حساب البعض الآخر. على حد تعبيره، القيام بعمل صحيح أثناء القيام بعمل جيد. وينطوي فعل الصواب على مراعاة ما يسمى بمخاوف ESG: الآثار البيئية والاجتماعية والحوكمة لممارسة الأعمال التجارية.

كتاب كارني له صدى مع كتاب شخصية عامة بارزة أخرى، جان تيرول، الحائز على جائزة نوبل الفرنسية لعام ٢٠١٤ في الاقتصاد، والذي نشر في عام ٢٠١٧ الاقتصاد من أجل الصالح العام. في كلتا الحالتين، تجادل شخصيات محترمة على دراية بعوالم الأعمال، والتمويل، والتنظيم الحكومي، بضرورة تحقيق التوازن بين الأسواق والأخلاق. لديهم مصطلحات مختلفة قليلا، حيث دافع تيرول عن الصالح العام باعتباره الأفق الذي يوفر للأسواق غرضها، ودافع كارني عن القيم، على أنها تحدد السياق الشامل الذي يجب أن توضع فيه القيم الاقتصادية المميزة. كلتا الحجتين مرحب بهما لأنهما يعززان النداء الأرسطي والكاثوليكي لتحقيق الغايات والأغراض، لتمكيننا من تجاوز العقلانية المحدودة للاقتصاد. ومع ذلك، في كلتا الحالتين تضعف الحجة بسبب إتقان ضعيف للأخلاق، وتحتاج القضية إلى تكملة وصف مفصل للسلع والقيم البشرية، والمصالح المشتركة. يتفق كلا المؤلفين على أن النفعية التبسيطية غير مرضية، وكلاهما يناشد الموقف الأصلي الافتراضي لراولز وحجاب الجهل، لكن هذا، لا يكفي لتقديم حساب قوي للسلع البشرية والقيم والمبادئ الأخلاقية. ومع ذلك، يجب أن نكون ممتنين لكل حليف يدق البوق، ضد هيمنة العقلانية الاقتصادية ويدافع عن القيم والأخلاق.

ضمن أكثر من خمسمائة صفحة من النص، هناك العديد من المناقشات القيمة حول قضايا معينة، مثل احتمالات العملات المشفرة، ومتطلبات المساءلة والشفافية في الأسواق، ودور تحقيق الدخل في التعامل مع أزمة المناخ. في هذه المجالات والعديد من المجالات الأخرى، هناك العديد من المؤشرات على خيارات السياسة الممكنة، لما يمكن القيام به لمعالجة المشاكل المحددة.

يبدو من السيء الشكوى من الكتاب الإيجابي، والتشجيع على أنه مجرد شيء لطيف للغاية. إنه مليء بالاقتراحات المفيدة حول كيفية مساهمة القطاعات المختلفة في بناء عالم أفضل. لكن هل يقوم كارني بتحليل كاف، للكيفية التي ساهمت بها تلك القطاعات نفسها، في التسبب في الصعوبات الحالية؟ لديه الكثير ليقوله حول كيف يمكن للأسواق المساهمة في الحل، لكن ملاحظاته حول الكيفية التي تسببت بها الأسواق المالية على وجه الخصوص، في إحداث المشاكل عامة للغاية في نبرتها. ويصف كيف «يمكن أن تسوء الأسواق»، وكيف «في أعقاب الأزمة المالية العالمية، تم الكشف عن العديد من الأسواق التي يُفترض أنها متوترة أو فاسدة». لكن هذا لا يقدم نوع التحليل الذي من شأنه أن يساعد في تحديد مصدر المشاكل. بالإشارة إلى الغرض من الأسواق المالية، يأمل كارني في مراجعة القواعد من أجل حسن سيرها. يكتب: «الرأسمالية ليست غاية في حد ذاتها، ولكنها وسيلة لتعزيز الاستثمار، والابتكار، والنمو والازدهار».

تتعلق الأعمال المصرفية أساسا بالوساطة - ربط المقترضين والمدخرين في الاقتصاد الحقيقي - على الرغم من أنه يذكر كتاب ماريانا مازوكاتو، قيمة كل شيء: صنع الاقتصاد العالمي والاستفادة منه، إلا أنه لا يشارك على الإطلاق في حججها القائلة، بأن الأسواق المالية تسهل «الأخذ» وليس

الخلق من الابتكار والازدهار. وتوثق كيف يتم توجيه نسبة صغيرة من التمويل بوساطة الأسواق لتسهيل الابتكار؛ إذ يقوم المستثمرون بتوجيه ثرواتهم إلى الشركات الجديدة فقط بمجرد أن يثبتوا نجاحهم.

ربما يكون لطيفا جدا أيضا مع أصحاب العمل السابقين، وزملائهم المحتملين في المستقبل في المؤسسة السياسية. هناك اقتراحات مفيدة حول التنظيم وما قد يتطلبه ويحققه، ولكن لا يوجد تحليل للكيفية التي أدت بها سياسات تحرير القيود في العقود الأخيرة، و ما آلت إليه من إزالة القيود التي كان الغرض منها تأمين القيم ضد الهيمنة الاقتصادية. «التنظيم» موجود في المؤشر، ولكن ليس «إلغاء التنظيم».

هناك فجوة أخرى ملحوظة في التأملات الشاملة المقدمة في الكتاب، مرتبطة بدور العائلات في الحفاظ على الثقافة. من منظور التعليم الاجتماعي الكاثوليكي، يبدو من السذاجة التخطيط لاستعادة مستدامة للمؤسسات اللائقة دون النظر إلى دور الأسر والآباء. لا تحتوي صفحات الفهرس البالغ عددها ستة وعشرين، في عمودين مكتظين بإحكام على إدخال «الثقافة»، أو «الأسرة»، أو «الآباء» أو «الفضيلة». يضمن التركيز على القيمة في جميع أنحاء الحجة، أن يكون القارئ على دراية بالأبعاد غير الملموسة، والروحية (التي تختلف عن الأبعاد «المادية») للثقافة المشتركة، المطلوبة للحفاظ على التعايش. قد تكون المؤسسات كافية، لكنها لا تستطيع تقديم عالم أفضل بدون الأشخاص ذوي الشخصية، والفضيلة الذين يجعلونهم يعملون. يقترب كارني من طرح هذا السؤال الذي يمثل لعنة كل الأنظمة الليبرالية: أين وكيف سنجد الأشخاص ذوي الشخصية اللازمين لتحقيق هذا الحلم؟ في المقدمة، أشار إلى الحاجة إلى المسؤولية «حتى يشعر الأفراد بالمساءلة عن أفعالهم»، والتضامن «حيث يدرك المواطنون التزاماتهم تجاه بعضهم البعض، ويشاركون في الشعور بالمجتمع». ويواصل التأكيد على أن قيم المسؤولية والتضامن هذه «تحتاج إلى رعاية»، لكن أين وكيف ستحدث هذه الرعاية؟

كما يقول إن الأسواق ليست معيبة، كآلية لقياس القيمة فحسب، بل إن تعديها على حياتنا، قد غير هذه القيم في المقام الأول. وهناك تاريخ للنظام المالي، وإلقاء نظرة على مصدر الأموال - تخترعه البنوك عند تقديم القروض، وهي النسخة المختصرة. في بعض الأحيان ينتقد الكاتب المصرفيين بشدة، ويبدو أن الكثيرين منهم سعداء بقبول أنه ستكون هناك أزمة مالية، كل ثماني سنوات تقريبا. «لن يتم التسامح مع مثل هذه القدرية المرهقة في أي صناعة أخرى»، كما يقول ساخرا.

إنَّ الثقافة المصرفية التي شهدت دفع المكافآت مقابل الأداء قصير الأجل شجعت على الإفراط في المخاطرة. كما هو الحال مع البيئة، كان التأثير هو المبالغة في تقدير الحاضر

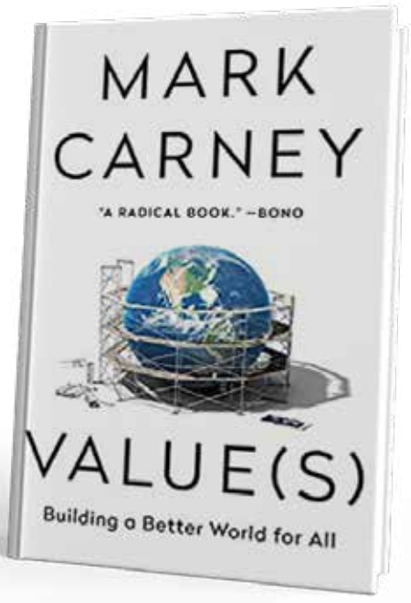

والتقليل من قيمة المستقبل. في بعض الأحيان، على الرغم من أن التحليل والمقترحات تبدو سليمة، فإن الأفكار الأولية، إن لم تكن مملة، بعيدة كل البعد عن الراديكالية. المساواة النسبية جيدة للنمو، من الأفضل للأثرياء إذا لم يكن بقيتنا فقراء. لقد انهار العقد الاجتماعي الأساسي، وانخفضت جودة الفرصة. نحن بحاجة إلى التفكير على المدى الطويل حول كيفية قيامنا بعملنا، وحول صحتنا والبيئة. تحتاج الشركات إلى هدف يتجاوز المال. ظل قادة الأعمال يتشدقون بهذه الأشياء منذ عقود، وبالتأكيد قبل كورونا. وليس من الواضح بالنسبة لي أنه حتى موت الكوكب هو دافع كافٍ لهم للتزحزح حقا، لقبول أقل (من أي شيء). حتى لو قمنا بإصلاح ما نقدره، فمن المحزن أن نعتقد أن الكثير منا سيحصل على الأموال قصيرة الأجل، مهما كان الأمر. على أي حال، كما يسأل كارني نفسه: «لماذا يجب أن يُدفع لشخص حتى لا يكون أحمقا؟» وهناك دائمًا شيء مضحك قليلا حول المطالب الملحّة للتغيير من قبل أشخاص أقوياء في السابق.

يقدم ديفيد روز في كتابه، «لماذا تعتبر الثقافة أكثر أهمية؟» إجابة - راجع مقالة سابقة أخرى عن «التفكير في الإيمان» - من خلال فهم الثقافة باعتبارها أخلاقا سائدة لضبط النفس القائم على الواجب. تؤكد روز على التدريب الذي يتلقاه الأطفال الصغار من والديهم، وهو تدريب يغرس الأذواق، ويشكل عادات الإرادة والتفكير، بحيث يتم تشكيل تلك الشخصية. إن الشباب المثقفين بمعناه، يسترشدون بإحساس بالواجب يقيد أخلاقيا ما قد يعتبرونه حتى خيارات للعمل. إن إغراء الركوب الحر، للاستفادة من السلوك الجيد للآخرين لإفادة الذات، لا يمكن أن يكون له شراء بمثل هذه الشخصيات. تعتمد الحضارة على جعل الناس غير راغبين في التصرف بناء على دوافعهم السيئة. كلما اقترب المجتمع من جعل الناس لا يتصرفون بناء على دوافع سيئة - أي إلى وجود أخلاقيات قوية للغاية لضبط النفس القائم على الواجب - كلما كان المجتمع أكثر تحضرا، ارتفع مستوى الثقة الاجتماعية، وزاد دعمها للازدهار الجماعي. لن يتم إصلاح الضرر الناجم عن فقدان الثقافة بسرعة: ستكون مسألة أجيال، ولكن أين سيتم العثور على الدافع للاستثمار ذي الصلة عندما تفتقر الشخصيات التي يمكنها التعرف على حجم الضرر إلى الموارد الثقافية اللازمة؟ لدى روز القليل من الثقة في قوة المناصرة الأخلاقية، وإقناع الناس بأن يكونوا صالحين، وتجادل بدلا من ذلك من أجل النقل الثقافي للقيم والواجب في مرحلة الطفولة المبكرة. هل هذا يدل على وجود قيود على نهج كارني؟ بينما ينادي باستعادة القيم، تتطلب المهمة أيضا المنظور الذي قدمته روز للاعتراف بمساهمة الآباء والأسر في الثقافة.

إنصافا لكارني، فهو يذكر التعليم في مرحلة الطفولة المبكرة، ويرى أهمية المجتمع، ولكن بعيدا عن الذكر في جملتين، ينصب تركيزه الأساسي على «التعلم الحقيقي مدى الحياة»: على مستويات مختلفة من التعليم (ابتدائي وثانوي وعالي ومهني) لتلبية احتياجات المهارات المستقبلية، في سوق العمل، حيث لم تعد الوظائف تدوم مدى الحياة.

بالفعل في محاضرات ريث التي بثتها هيئة الإذاعة البريطانية في عام ٢٠٢٠، استفاد مارك كارني من الاعتراف باسمه، وسمعته كمحافظ سابق لبنك إنجلترا لإثبات القضية في هذا الكتاب. إننا نواجه تحديا للاهتمام بالأفق، ومجموعة القيم، لضمان أن أنشطتنا المعقدة في الأسواق، والمصارف مصممة ومقيدة لخدمة أغراضها المناسبة. بالنسبة لكل من يتبنى قضية الأخلاق، يجب اعتبار هذا المؤلف حليفا، وكتابه موردا ثريا لإثبات القضية، حتى لو كانت القضية تتطلب معرفة أخلاقية أعمق مما هو متاح هنا. ولكن بعد ذلك، هذا أيضا جزء من الرسالة: يجب علينا جميعا العمل معا، وعدم ترك الأمر لصوت واحد، أو لأي قطاع، لإملاء السياسة. يجب على الجميع تقديم مساهمتهم.

اسم الكتاب: القيم: بناء عالم أفضل للجميع

المؤلف: مارك كارني

سنة النشر: 2021م

دار النشر: الشؤون العامة للنشر والتوزيع

عدد الصفحات: 608 صفحة

اللغة: الإنجليزية

* كاتب عماني

إسرائيل والمجتمع الحريدي: أسوار ترتفع ومستقبل مليء بالتحدي

شوكي فريدان

أحمد أشقر *

المشاهد المتلفزة التي بثتها وسائل الإعلام المختلفة لقوات الشرطة وحرس الحدود وهي تطارد جماعات (الحريديم= اليهود المتزمتين دينياً) في القدس ووسط البلاد من أجل تثبيت حجرهم في بيوتهم وتعمل على توزيع وجبات غذائية عليهم في بداية جائحة الكورونا، أعادت إلى أذهان بقية اليهود في الكيان وجود جماعات يهودية أخرى مختلفة عنهم إلى حدّ بعيد، وقالت بعض النخب من اليهود «العلمانيين»: في إسرائيل اليهودية يعيش شعباهما؛ اليهود العلمانيون، و(الحريديم)، بخلاف اليهود المتدينين التقليديين.

وعلى خلفية هذه الأحداث جاء الكتاب الذي نحن بصدد قراءته الآن.

يخصص الباحث كتابه لإشكاليات وخلافات (الحريديم) مع الدولة ومؤسساتها وبقية يهود الكيان، إذ يكتب في المقدمة: «إن التكاثر الحاد للمجتمع الحريدي في العقدين الأخيرين يغيّر بسرعة وجه الواقع الإسرائيلي. ويفرض أمام الدولة والمجتمع الإسرائيلي تحديات عمليّة وقيميّة كثيرة المعنى» (ص ٧- ١١) ويجمل المؤلف التحديات التي تواجهها الدولة والمجتمع اليهودي- من جهة، و(الحريديم) من جهة أخرى باثني عشر تحديًا يختتمها بتلخيص ومفاهيم أساسية.

يبدأ الباحث في التحدي الأول ألا وهو «دمج الحريديم في المجتمع الإسرائيلي: المساواة في تحمل العبء الأمني»، ويشرح فيه إعفاءهم من الخدمة العسكرية الإلزامية الذي منحه وزير دفاع الكيان الوليد لشباب وشابات الحريديم «١٩٤٩»، وقرار المحكمة العليا سنة ١٩٩٨ التي تضطلع بمهام دستورية تقضي بضرورة تنظيم أمر هذا الإعفاء بقرار تشريعي؛ لأن قوى عديدة بين اليهود باتت تطالب بالمساواة بضرورة تحملهم العبء الأمني. ومنذ تلك الواقعة، خدم في الجيش وتطوّع في مرافق الدولة الأخرى بضعة آلاف فقط، ويخلص الباحث بالقول: «فشل اختبار (الحريديم) في خدمة الدولة بواسطة الخدمة العسكرية وتحمل العبء الأمني والمدني فشلا ذريعاً في دمجهم»(ص ١٢- ١٥). ويمكن القول إن فشل استيعاب (الحريديم) في الجيش وقوى الأمن الأخرى كان معروفاً سلفاً لسببين؛ الأول- المدارس الدينية التي يتخرج منها (الحريديم) لا تؤهلهم معارفها المحصورة في مواضيع الشريعة والحياة العائلية بالتجند في الجيش أو العمل في مؤسسات مدنية علمانية أخرى؛ والثاني- عدم وجود رغبة فعلية عند بعض القوى المؤثرة في الجيش لتجنيدهم؛ لأن تأهيلهم يستغرق فترة طويلة ومكلفة. هذا إذا علمنا أن بعض الجماعات في الجيش تدرس إمكانية تحويله إلى جيش مهنيّ وإلغاء أو تقصير مدة الخدمة الإلزاميّة. تخدم في الجيش وحدة «هناحل وحريديم/ الوحدة الحريدية» التي أصبحت منذ الثاني عشر من شهر كانون الأول سنة ٢٠٢٢ الشغل الشاغل لوسائل الإعلام العالمية لأن أفراد فرقة منها «نيتسح يهودا/ أبد يهودا أقدموا على قتل العجوز الثمانيني بتكيم فمه بلاصق، وعصب عينيه، وتكبيل يديه واحتجازه في مبنى قيد الإنشاء في البرد القارس إلى أن فارق الحياة.

يواصل الباحث القول أن التحديين: الثاني- «سياسة الدمج في العمل والنجاح النسبي»، والثالث- «المشاركة في قوى العمل وأجر العمل»الداعيين إلى دمجهم في سوق العمل لم ينجح إلا جزئيا لبقاء قطاع واسع من القوى في سن العمل خارجه وإنتاجية متدنية للعاملين فيه لأنهم يتقاضون رواتب متدنية بسبب تأهيلهم التعليمي- العملي المنخفض (ص ١٥- ٢٨). من الشائع القول إن (الحريديم) لا يعملون ويتقاضون رواتب من الدولة طالما يدرس الرجال في المدارس الدينية بعد المرحلة الثانوية. هذا صحيح جزئياً فنساؤهم ينخرطن في سوق العمل بنسبة أعلى من الرجال لعدم انتظامهن في المدارس الدينية المغلقة أمامهن لأسباب دينية ويتقاضين رواتب أقل من مثيلاتهن العلمانيات. أما الرجال فيمارسون بعض الأعمال غير الرسمية، مثل تقديم خدمات هنا وهناك أو الاتجار ببضائع زهيدة الثمن. لكن الأمر بدأ يختلف في العقد الأخير عندما بدأ قطاع كبير نسبياً من رجال ونساء (الحريديم) يدركون فقر وسوء أحوالهم مقارنة ببقية اليهود، وأن الخروج من هذا الواقع إلى عالم الرفاهية يتطلب تغيير وجهة نظرهم عن الحياة، والدراسة، والعمل. فبدأ بعضهم الانخراط في قطاعات المعلوماتية، والإعلان والإعلام والتسويق والتواصل بين مجتمعي (الحريديم) والعلمانيين. ويجب القول هنا إن قوى السوق الليبرالية هي التي تدفع بهذا الاتجاه لسببين: زيادة أرباحها من فائض عملهم وإنتاجيتهم، والتخلي تدريجياً عن دورها في رعايتهم في عالمهم الديني.

ويخصص الباحث التحديات: الرابع- «جهاز التربية الحريدي والحاجز الذي تنتجه أمام اندماج (الحريديم) في المجتمع الإسرائيلي»، والخامس- «اندماج (الحريديم) في التعليم العالي ونجاحه المحدود جداً»، والسادس- «(الحريديم) والتكنولوجيا»للحديث عن أهم المعوقات التي تواجه (الحريديم) في حياتهم العملية والإسرائيلية. ينطلق الباحث من «الخطيئة الأولى المسؤولة بمدى معين عن القبائلية التي تميّز المجتمع الإسرائيلي اليوم وهو فصل جهاز التربية إلى أربعة أقسام «...»» التي وصفها «بن جوريون» بـ«الأوتونوميا» حيث تدارك بالقول إن الدولة هي التي تقرر الحدّ الأدنى من مواضيع التدريس وتراقبها. وقد أنتج فصل (الحريديم) في مسار تعليمي تربوي خاص بهم أجيالاً ضعيفة في كل شيء تقريبا مثل عدم معرفتهم البسيطة في أصول الحساب والرياضيات والعلوم الطبيعية، واللغة الإنجليزية، وتاريخ الكيان والاجتماعيات. الأمر الذي جعلهم مغتربين عن الدولة والمجتمع وسوق العمل الإسرائيلي. أما نتائج دمجهم في التعليم العالي عن طريق تخصيص مواضيع خاصة بهم والفصل بين الرجال والنساء فكان نجاحه ضئيلاً في النهاية لأنهم غير مؤهلين له ولم يقبلوا عليه كما توقّع واضعوه. يفاقم هذا الوضع ارتباطهم المحدود بالإنترنيت والهواتف الخلوية (الذكيّة شبه معدومة) من حيث عددهم (الحريديم) والمضامين الدينية بحسب الشريعة التي ينكشفون عليها، وتُشكل هي الأخرى حواجز أمام اندماجهم في سوق العمل والمجتمع الإسرائيلي (ص ٢٩- ٥٢). لقد باتت أضرار هذا الفصل معروفة منذ زمن طويل لأنها تعدم قدرتهم على مواصلة التعليم العالي تحديداً النساء منهم، وتضعف تواصلهم مع بقية الإسرائيليين والعالم بالنت والهواتف الخلوية، أي تبقيهم في (جيتو) أسواره ترتفع وترتفع.

في التحدي السابع- «السياسة الحريدية كوسيلة لرفع الأسوار» يقول الباحث إن تحوّل (الحريديم) إلى بيضة القبان في تشكيل الحكومات الإسرائيلية منذ تسعينيات القرن الماضي أدى إلى «تحصين» نمط الحياة الخاص بهم لسببين: الأول- مواصلة إعفاء أبناء الشبيبة من الخدمة العسكرية، الأمر الذي يحول دون مواصلة تعليمهم العالي والالتحاق بسوق العمل والاندماج في المجتمع الإسرائيلي؛ والثاني- تجنيد الأموال من مؤسسات الدولة المختلفة «والخارج» لمواصلة حياتهم التقليدية على مستوى جماعات (الحريديم) المختلفة والأفراد منهم. وينقل المؤلف عن الباحث (موشي لاو) الذي بحث تأثير السلوك السياسي للحريديم على سياسة الرفاه في الدولة بالقول إن سلوكهم السياسي سمح لتدفق الأموال عليهم لكنه حصرها بهم ومنعها عن الآخرين (ص ٥٣- ٥٥). هذا الواقع لم يؤثر فقط على (الحريديم)، بل تعداه إلى بقية أفراد المجتمع اليهودي الذين باتوا يكنّون الضغينة والغيرة حيالهم بقولهم: «يعيشون على حسابنا»، «هم شعب آخر»، «متخلفون» وغير ذلك من نعوت وأوصاف تعمق الفروق وترفع الأسوار الاجتماعية والنفسيّة بينهم، الأمر الذي بدأ يقلق قباطنة الدولة على مصير نسيج المجتمع اليهودي ووحدته.

في التحدي الثامن- «الآثار الاقتصادية على التفضيلات القيميّة للحريديم» فيه يشخص الوضع الاقتصادي لهم كالتالي: وفقاً لمعطيات مؤسسة التأمين الوطني لسنة ٢٠١٨ بلغت نسبة العائلات الحريدية التي تعيش تحت خط الفقر ٤٢٪، والأولاد منهم ٥٢٪، وتبلغ نسبة مجمل (الحريديم) الذين يعيشون تحت خط الفقر ٤٢٪. ثم يضيف: إن انكشاف (الحريديم) على بقيّة الإسرائيليين من شأنه أن يغيّر مفهوم الفقر والاحتياجات المختلفة في سياق مقارنتهم مع بقية اليهود ولن يبقى عن المعطيات الإحصائية فقط (ص ٥٦- ٥٨). نعيد ونكرر؛ إن الوضع هو نتيجة إعفائهم من الخدمة العسكرية، ودفع رواتب للرجال الذين يواصلون دراستهم الدينية فوق الثانوية، ومنح قطاع التعليم الخاص بهم «أوتونوميا» الذي اسميتها ذات مرّة بـ«أوتونوميا التخلف» لأنها أفضت إلى تخلفهم عن بقية اليهود.

في التحدي التاسع- «(الحريديم) والإسرائيليون: جوانب قيميّة» يشرح المؤلف إشكالية تعاطي (الحريديم) مع القيم الديموقراطية، والمساواة، والليبرالية والعرب الذين يعيشون في الكيان ويقول إن (الحريديم) يقبلون بمبدأ المساواة مع بقية اليهود إلا أنهم يرفضونها مع العرب ونسبة الرافضين لها ترتفع سنة بعد سنة. لذا يقول إن دولة إسرائيل اليوم متصدعة اجتماعيّاً، وإن الديموقراطية فيها غير ثابتة، بل نابعة من توازنات قبليّة مختلفة (ص ٥٩- ٦٧). وكي لا نبتعد كثيرا عن الأسباب

التي تؤدي إلى العداء للعرب أو نضرب أخماساً بأسداس لفهم الظاهرة يمكننا تصفح الكتب المدرسية ووسائل الإعلام المختلفة الخاصة بهم التي لا تذكر العرب بالاسم، بل تصفهم بال(جوييم) و(يشمعئليم= الإسماعيليين) وهو وصف يعني أنهم أدنى من اليهود وأعلى درجة من الحيوانات. هذا ناهيك عن السياسة الرسمية للكيان التي تغذي هذه النظرة العدائية تجاه العرب.

في التحدي العاشر- «المجتمع الحريدي اليوم: صورة محدثة» يقسم المؤلف هذا المجتمع إلى مجموعتين هما: «حريديو الخيمة» و«حريدو الحصن». فحريدو الخيمة هم من أبناء الطوائف الشرقية الذين درسوا في مدارس «حريديو الحصن» لكنهم لم يتبنوا كامل قيمهم فبقوا أكثر مرونة من «حريدي الحصن» المتشددين ممن يرفعون الجدران حول قيمهم ومناحي حياتهم المختلفة. ويقول إن التغيرات لم تحصل بين (الحريديم) من حيث تقبلهم للقيم العامة للمجتمع الإسرائيلي، بل إن المجتمع الإسرائيلي هو الذي تقبلهم (ص ٦٨- ٧٥). ويمكن القول إن التحدي الحادي عشر- «التنبؤات الديموقراطية ما بين مجتمع حريدية الخيمة وحريديي الحصن»- هو تتمة للتحدي الذي سبقه، ويعبر المؤلف عن قلقه من عدم وجود سياسة وخطط واضحة لنسبة تكاثر (الحريديم) ودمجهم في سوق العمل الذي سيستمر في الخسارة والنزيف لعدم دمجهم فيه. كما أنه يعبّر عن قلقه من عدم رغبة حريديي الحصن الاندماج في المجتمع الإسرائيلي. بالمقابل، إن حريديي الحصن أكثر مرونة في السكن في أحياء ومدن مختلطة بينهم وبين العلمانيين (٧٦- - ٨٥). في نفس السياق ينهي الباحث كتابه بالسؤال والتحدي الثاني عشر- «(الحريديم)والكورونا: تسارع الأوتونوميا؟» ليقول إن تعاطى حريديي الخيمة يتصف بمرونة أكثر من حريديي الحصن الذين تمردوا على قرارات الدولة من حيث الحجز الصحي واللقاحات والالتزام بتعاليم الوقاية من الكورونا، ليطرح سؤالاً هاماً حول تعمق مسار الأتونوميا بينهم؟ وليقول أيضاً إن ثقة (الحريديم) على وجه العموم بمؤسسات الدولة ضعيفة جداً وإنهم مغتربون عنها (ص ٨٦- ٩٠). والسؤال الذي يطرحه الباحث ليس عبثيّاً أو من الخيال. فهناك قوى برجوازية تقليدية بين اليهود لا يهمها أمر دمج (الحريديم) في المجتمع الإسرائيلي، لأن العطايا التي تقدمها الدولة لهم أقل ثمناً من إمكانية حصولهم على حصتهم إذا ما انخرطوا في سوق العمل واندمجوا في الدولة ومؤسساتها.

في الخاتمة نقول: إن المعضلة والتحدي الأكبر الذي يتحدث عنه الباحث هو القلق على الكيان الذي يتعمق فيه التزمت الديني وتشظي المجتمع اليهودي. أي تخوفه من استمرار ضعف النسيج الاجتماعي اليهوإسرائيلي في مواجهة التحديات السياسية والأمنية التي تواجهه في المنطقة. فبدل أن تعمل الدولة ونخبها على حلّ مشكلات (الحريديم) (والعرب الذين غيّبهم الباحث عن المشهد) فإنها تدفع بهم في العقدين الأخيرين للاستيطان في الضفة الغربية ،والأحياء العربيّة في كل من المدن المختلطة يافا واللد والرملة وعكا، وبالقرب من بعض القرى العربيّة في المثلث والجليل كجزء من تجديد الاستيطان اليهودي في فلسطين. على هذه الخلفيّة هاجم (الحريديم) الأحياء العربية في المدن المختلطة في أيار ٢٠٢١ (وكنت قد كتبت عن هذه الظاهرة في مقالين هما: (عرب اللد: «في مرمى القمع والتهجير» ٢٠١٠، و«كتائب الحروب الدينية والديموغرافية» ٢٠١١). ويسود الاعتقاد بين دهاقنة الكيان أن (الحريديم) هم أكثر الجماعات السكانيّة تكاثراً في العالم وليس بين اليهود فقط، لذا يشكلون حلا للمشكلة الديموغرافية التي عمل عليها (شمعون بيرس) في اتفاقية أوسلو ١٩٩٣ بتثبيت تجزئة عرب فلسطين في ثلاثة معازل في الوطن (مناطق الـ٤٨، الضفة وغزّة) وإبقاء اللاجئين في دول لجوئهم.

عنوان الكتاب: إسرائيل والمجتمع الحريدي: أسوار ترتفع ومستقبل مليء بالتحدي

اسم المؤلف: (شُوكي فريدان)

إصدار: المعهد الإسرائيلي للديموقراطيّة

سنة الإصدار: 2021

عدد الصفحات: 91

لغة الكتاب: العبرية.

* باحث في الدراسات الدينية ومترجم من فلسطين

الإسلام ونظام العالَم

أمير نور

صلاح خيراني *

الأستاذ والمفكر «أمير نور» ومن خلال كتابه ودراسته الجادة والرصينة يعالج الإشكالات والقضايا التي تواجهنا، مستشرفا لمستقبل الأمة الإسلامية في عالم سريع ودائم التغير، وهو من خلال هذا الكتاب أعطى دفعا نوعيا للمكتبة العربية والإسلامية خصوصا وللفلسفة السياسية البشرية عموماً. هذا الكتاب الذي يحمل عنوان: «الإسلام ونظام العالَم: وصية مالك بن نبي Malek Bennabi testament de le monde du ordre et L'Islam» وللوهلة الأولى وانطلاقا من عنوان الكتاب نلاحظ الرسالة التي يريد الأستاذ أمير نور إيصالها وهي: فلنعِد صياغة المفاهيم مجددا لفهم العالم بشكل أعمق.

لقد تابع الكاتب من خلال توثيق صارم أفكار أكبر الكُتَّاب العالميين المعاصرين المهتمين بدراسة واقع الحضارة اليوم ومصيرها المستقبلي. ونَبَّهنا إلى ضرورة قراءة الإنتاج الفكري والسياسي الغربي بتوجهاته المختلفة وأحيانا المتضاربة لفهم ما يدور حولنا ورسم معالم الاستراتيجية المستقبلية لأمتنا. وذكَّرنا في هذا المجال بأنه لا يكفي الفهم السطحي أو السريع لطبيعة الصراع السائد اليوم لتوقع التحولات القادمة، بل ينبغي البحث عن جذوره العميقة في عالم الأفكار التي عملت على صناعته. وهذا لن يتأتى إلا من خلال متابعة دقيقة لما يَصدر من مؤلفات وتقارير ومقالات، عن دور نشر عالمية أو مراكز بحث متخصصة أو ما تشير إليه كبرى وسائل الإعلام عبر آراء كُتَّابها. لقد غَطَّى الكتاب جزءا كبيرا من ذلك وسعى للإجابة عن سؤال مركزي: هل يمكن للحضارة القادمة أن تتشكل من دون قيم الإسلام؟ وهل انتصر الغرب في حربه التي دامت أكثر من ٥ قرون على العالم الإسلامي؟ وهل أطروحات اليوم عن الإمبراطورية التي تحكم العالم من خلال مجموعة احتكارية قليلة العدد -٨ أشخاص يمتلكون وحدهم ما يمتلكه النصف الأكثر فقراً في العالم.. ثرواتهم المقدرة بـ٤٢٦ مليار دولار تساوي ما يعيش به ٣,٥ مليار من السكان- ستفرض منطقها على البشرية وتصنع مستقبلها كما تريد؟ أم أن اعتبار هذا الأمر مشكلة أخلاقية أكثر مما هي اقتصادية كما يقول (Collins ص ١١٨)، سيُعزِّز استعادة فعالية القيم الإسلامية ويُنبِّهنا إلى أنَّ هذا العالم الذي نعيش فيه الآن مازال عثمانيًا في حدود كثيرة على حد تعبير «Alan Mikhail» في كتابه « ظل الله: السلطان العثماني الذي شَكَّل العالم المعاصر - God's Shadow: The Ottoman Sultan who shaped the modern world» الصادر سنة ٢٠٢٠ (ص٤١)، أم أن القرن الحالي لن يكون لأحد؟ (ص١٠٩).

هل هناك تحول، أم نهاية للسلطة على الصعيد العالمي؟ هل ستحطم الولايات المتحدة النظام الليبرالي الذي صنعته؟ وأي مكانة ستكون لنا فيه؟ وهل ينبغي لنا قراءة مالك نبي مرة أخرى لنعرف طريقنا نحو المُستقبل؟ وعشرات الأسئلة التي طرحها الكاتب وأجاب عنها، تصريحا أحيانا وتلميحا أحيانا أخرى.

هذه الرسالة التي يتبناها الكاتب أسَّسها بناءً على مرجعية راسخة من مرجعيات المدرسة الفكرية الجزائرية والإسلامية وهي أعمال الأستاذ الراحل، ضمير العالم الإسلامي والشاهد على القرن العشرين..» مالك بن نبي». إن الأستاذ مالك بن نبي وفي إحدى أهم وأخطر الأفكار والمُلاحظات التي ضمّنها في محاضرة من محاضراته الأخيرة قبيل وفاته سنة ١٩٧٣م والمسماة باسم (دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين)، يحدد بدقة وفي وقت مُبكر جداً ملامح نظام دولي سيقوم على أنقاض انهيار الاتحاد السوفييتي سابقًا، الذي استشرَفَ انهياره قبل سقوطه الفعلي بأكثر من عشرين سنة. هذه الملامح التي أشار فيها إلى ضرورة استعدادنا للتغيير المسبق ومواكبة الأحداث كي لا نقع في فخ الاستقطاب (أحادي القطبية) فيُفرَض علينا التغيير من الخارج. ثم يقوم ويدعو إلى التخلص من الإرث التاريخي والتراكم النفسي-الزمني الذي ألحقه تخلف العالم الإسلامي من جهة والمدنية الغربية من جهة أخرى، حتى نتمكن من إعادة التوازن إلى الضمير الإنساني في العالم والذي يوازن بين العلم والروح على حد السواء.

وهنا بالذات يتحقق مفهوم إقامة نظام للعالَم بدلا من مجرد نظام دولي أو عالمي أو كوكبي يحمل سِمات سياسية مختزلَة في طابع هيكلي لتنظيم العلاقات الدولية أكثر مما يحمل السِّمات الحضارية الشاملة للعلاقات الإنسانية سواء أفرادا وجماعات أو شعوبا وأمما ومجتمعات أو دولا وحكومات. ومن هنا بالذات ينطلق الكاتب «أمير نور» في تحليله العميق الذي يعود فيه إلى الجذور التاريخية لظهور ما يسمى بالنظام الدولي الذي حرص مالك بن نبي على نقده. وقد عاد في ذلك إلى ما يقارب الأربعة قرون ليجد أن الجذور العميقة لشتى المفاهيم السياسية الراهنة هي ذات منشأ غربي بعد مؤتمر وستفاليا سنة ١٦٤٨م (كمفهوم السيادة والمصلحة القومية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية... إلخ)، ولكن هذه المفاهيم نفسها لم تكن الدول الأوروبية محترمة لها، وهي تغزو تحت الدفع القوي لنزعتها الاستعمارية المستندة إلى ما وصلت إليه من قوة مادية إثر الثورة الصناعية خصيصا إبان القرن التاسع عشر.

وفي أثناء تحليل الوضع الراهن، ثبت بأن النظام الدولي لم يعد صالحا ليستمر بهذا الشكل وأنه يتأهب للتحول إلى طور آخر وهو نظام عالمي متعدد الأقطاب لا تكون فيه الدولة هي وحدة التحليل الأساسية على غرار ما تراه المدرسة الواقعية مثلا، بل تصبح الفواعل الأخرى كالشركات والتكتلات

الإقليمية والمجتمعات المدنية وغيرها كلها فواعل لها تأثيرها أيضاً. ولكن مهما يكن من أمر فإنَّ الطابع السياسي الذي سيُهيمن على النظام العالمي المقبل هو التعددية القطبية، أو تعددية الأطراف الدولية كما يعبر آخرون عن ذلك، الأمر الذي دفع بالكثير من النخب العالمية إلى محاولة استشراف مآلات كل ذلك وحتى تقديم بعض الأطروحات التي تسعى لاحتواء التحول المقبل. وهذا ما تطرق إليه الأستاذ «أمير نور» في معرض نقده لما كتبه الدبلوماسي الأمريكي المخضرم «هنري كيسنجر» في أحد كتبه الأكثر أهمية وهو (النظام العالمي).

ومن أهم الإشكاليات التي يمكن استنباطها من كتاب كيسنجر هي مدى إمكانية إنشاء نظام عالمي مشترك ولكن انطلاقاً من قيم وتجارب تاريخية متباينة لشعوب مختلفة. غير أن التوجس الأكبر الذي قدمه كيسنجر هو أنه في حالة فشل إقامة نظام عالمي جديد سيكون الخوف من فتح مجالات نفوذ مختلفة لقوى معينة أكثر من الخوف من نشوب حرب واسعة النطاق، وأهم أنموذجين سيشكلان لنفسهما مجالات نفوذ متضادة هما النسخة الوستفالية الغربية العلمانية القائمة حاليا والنسخة الإسلامية الراديكالية. بذلك يبدو الشكل العام لمستقبل العالم كأنه صراع بين هذين الأنموذجين، ومن هنا بالذات يأخذ الأستاذ أمير نور زمام المبادرة ليتجاوز طرح كيسنجر والذي يصفه بالقراءة السطحية والذاتية أكثر منها إستراتيجية.

لقد ذهب «أمير نور» قدما في كتابه ليطرح الإشكالية على صيغتين: ما مستقبل الإسلام في العالم؟ وما مستقبل العالم بالنسبة للإسلام؟ إن الإجابة تتطلب أولاً معرفة أوضاع العالم الراهنة والتي يُشير إليها الكاتب باختصار أنها لا تخرج عن نطاق الفوضى الدولية التي تطبع النظام الدولي الراهن، كما أنها تشهد انهيارا وتفككا للمنظومات الفكرية التي هيمنت قديما مثل الكاثوليكية التي رضخت أخيرا لجموح العالم الحديث، بينما بقيت العولمة تصول وتجول على مختلف شعوب العالم وثقافاتهم لتطبعهم بطابعها الأحادي الراضخ لليبرالية. وهنا يظهر الإسلام كحصن منيع بقي هو الحامل الوحيد للواء التوحيد الإبراهيمي لم ينجح أي طرف في تفكيكه ليلائم ذلك الجموح الإيديولوجي والسياسي للنظام الدولي الحالي. وهذا يمثل بالنسبة للكثير من الشعوب

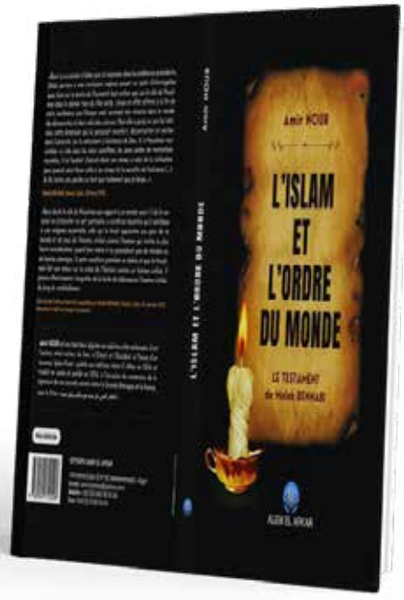

والمجتمعات مرجعا ثابتا كالمنارة الشامخة وأملاً مشرقاً بين أمواج عصر تموج بالاضطرابات والتيارات المتضاربة. فمستقبل الإسلام إذن في العالم يبدو جلياً بأنه مستقبل مقاومٌ، أي لن يستطيع العالم رسم أي شكل للعلاقات الدولية والحضارية يغلب عليها الطابع الأحادي دون أخذ الإسلام والعالم الإسلامي بعين الاعتبار؛ فمُستقبل الإسلام هو مستقبل استراتيجي بحق وسيكون محورياً وليس هامشيًا.

أما مستقبل العالم بالنسبة للإسلام نفسه فإنّه يخضع للحتميات القدرية بالموازاة مع إرادة الإنسان، إذ الآيات صريحة في ذلك مثل ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ و﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. الأمر الذي يمنح للمسلم رؤية مزدوجة للعالم: من حيث هو ميدان للتصرف والإرادة الإنسانية، ومن حيث هو صفحة للقدر الإلهي. فلا يسقط في اليأس ولا في الاتكال. وحينما نذكر الإرادة فذلك يعني طرح مجمل العوامل والشروط المعنوية منها والمادية التي تشحذ هذه الإرادة وتكونها ثم تجعلها تمثُّلاً وواقعا. ومن هذه الفكرة يعود «أمير نور» إلى الهندسة التي وضعها الأستاذ مالك بن نبي في هذا الشأن والتي ربط فيها بين (إعادة تفعيل عقيدة المسلم) وتكوين ثقافته من جديد على منطق عملي ليجمع بين الروح والمادة ويحقق التوازن، ومن خلال هذا التوازن يسعى برسالته ليكون أعلى من الربوة وليس تحتها... لأنَّ الماء لا يسقي الربوة التي تعلوه، أي أن يواجه المدنية الغربية وهو في المستوى العالي الذي يؤهله لتقديم أنموذج حضاري لها بعد تخلّصه من حالته المتخلفة أولاً بمعالجته لها ولأسبابها. وحينها يجد المسلم أنه وصل لتحقيق: نظام للعالَم بدلا من رضوخه لتجاذبات خارجية لمحاور دولية تتضارب بين نظام دولي أحادي القطبية ونظام عالمي متعدد الأطراف. إذ يجد رسالته الحقيقية وهي أنه يسعى لوضع نظام يعيد ضبط المفاهيم والعلاقات والمصالح بين الناس من جديد.

إن جميع هذه الأسئلة والإشكاليات يتطرق إليها الكاتب «أمير نور» في عمله النوعي هذا تطرُّق الخبير والمشخّص والمعالج على حد سواء بما يدفع بنا إلى الإشادة فعلاً بهذا العمل والدعوة إلى فتح أبواب البحث في أهم المواضيع التي طرحها لتوسيع نطاق الاستفادة من جهة والإسهام في المساعدة على معالجة كل تلك الملفات من جهة أخرى... معالجة تسعى إلى تقوية أسسنا الفكرية والأخلاقية والاجتماعية في عالم يتوجه نحو تغيّرات مستقبلية كبرى. وبعد اطلاعي على الكتاب وتعمقي فيه، خرجت بخلاصة مفادها أنه لا يمكن الزَّعم بإمكانية امتلاكنا لتصور واضح عن مستقبل العالم ومستقبل أمتنا ضمنه في العقود القادمة من دون قراءة عميقة ومُتمَعّنة لما تضمنته كتابات الغربيين في هذا المجال وخاصة منذ بداية هذا القرن. وهو ما قام به الكاتب باحترافية عالية وبصرامة علمية لا شك فيها، من حيث دقة الاقتباسات ووجاهتها وحسن اختيارها.

عنوان الكتاب: الإسلام ونظام العالَم: وصية مالك بن نبي

L'Islam et L'ordre du monde le testament de Malek Bennabi

المؤلف: أمير نور

اللغة: الفرنسية

عدد الصفحات: 236

دار النشر: عالم الأفكار Afkar-Alem El

مكان النشر: الجزائر

تاريخ النشر: ديسمبر 2021

* باحث جزائري مختص في الدراسات العثمانية وفي تاريخ الشرق الأوسط السياسي والعلاقات الدولية.

إصدارات عالمية جديدة

اللغة الفرنسية (سعيد بوكرامي)

المجتمع القادم

المؤلف: ديدييه فاسان **تاريخ النشر: 2022**
الناشر: دار سوي. باريس فرنسا. **عدد الصفحات: 1344**

مع مرور السنين، يبدو أنَّ الأزمات تتضاعف: الأزمة المالية، والأزمة الصحية، والأزمة البيئية، وأزمة اللاجئين، وأزمة النظام الأبوي، وأزمة الديمقراطية، وحتى أزمة الرأسمالية والليبرالية الجديدة، ويعتقد البعض أنَّه يُمكن أن تمتد القائمة. هل أصبحت الأزمة هي الوضع الطبيعي الجديد للعالم المعاصر، مع خطر ضرورة إيجاد حلول في حالات الطوارئ فقط؟ الخيار الذي اتخذ في هذا الكتاب هو الدعوة إلى تفكير جماعي مُتيقظ للأسئلة الجسيمة في الوقت الحاضر كمُقدمة لأشكال أخرى من الحياة الاجتماعية القادمة.

يفتح كل قسم من أقسام الكتاب آفاقًا حول القضايا الرئيسية التي تواجه المجتمع الفرنسي خاصة والمجتمع الكوني عامة، والخطوط السياسية التي تعبره، والعوالم الاجتماعية التي تفككه، وعدم المساواة التي تقسمه، والاعترافات التي تثري الفهم والاستكشافات بحثًا عن بدائل. من العولمة إلى الشعبوية، ومن الهجرة إلى الأوبئة، ومن التمييز إلى المشترك، ومن المنصات الرقمية إلى الاقتصاد التضامني، إنها نظرة واضحة تركز على التحولات التي تحدد عالمنا.

ليس هذا الكتاب عبارة عن وصف وضع ولا تمرين في علم المستقبل، إنه سؤال حاسم في عصرنا من أجل توقع المُجتمع القادم.

جمال وتناغم الكون

المؤلف: ترين كسوان طوان **تاريخ النشر: 2022**
الناشر: دار بوكان. فرنسا **عدد الصفحات: 1248**

إن للكون ماض ومستقبل وبداية ونهاية. نشأ قبل 13.8 مليار سنة، من خلال انفجار مذهل يسمى الانفجار العظيم، والذي ولّد أيضًا المكان والزمان؛ تاريخه هو تاريخ مادة تولد وتنشط وتنظم نفسها. في إحدى هذه المجرات، تظهر مجرة درب التبانة، بجانب نجم، الشمس، وعلى كوكب الأرض، يوجد إنسان قادر على الإعجاب بجمال الكون وتناغمه والتفكير في أصله ومآله. هذا التكافل بين الإنسان والكون هو الموضوع المشترك للنصوص الأربعة المجمعة في هذا الكتاب الفريد. يوضح صاحبه ترين كسوان طوان. أن الكون تشكل من خلال القوانين والثوابت الفيزيائية. يعالج العلم اليوم أسئلة كانت ميتافيزيقية بحتة من قبل: ما هو أصل الكون؟ هل هناك بداية للزمان والمكان؟ هل نحن هنا بالصدفة أم أن وجودنا في الكون مُقدر؟ ينير ترين كسوان طوان تفكيرنا، بينما يسرد علينا هذه القصة الساحرة والرائعة والشاعرية، بصرامة علمية وموهبة قصصية تجعل منه معلما طليعيا لا مثيل له. يحتوي هذا المجلد على خمسة فصول مثيرة للإعجاب وهي: التناغم السري، السديم والتناغم، الرغبة في اللانهاية، اللانهائي في راحة اليد، مع ماتيو ريكار.

قوة الطفولة مع فيجوتسكي وسبينوزا

المؤلف: باسكال سيفيراك **تاريخ النشر: 2022**
الناشر: دار ج.فران. المكتبة الفلسفية. فرنسا **عدد الصفحات: 240**

كيف نربي الطفل؟ دعنا نعكس السؤال ونطرح على أنفسنا أولاً ما الذي يمكن للطفل أن يفعل بمفرده، مع أنَّه يعيش في حالة من التبعية المتواصلة: ماذا يمكنه، بمساعدة الآخرين، أن يغير من نفسه ويصبح شخصًا آخر. ولهذه الغاية، نحتاج إلى تطوير «أنثروبولوجيا الطفولة» التي تأخذ بعين الاعتبار الطرق الجسدية والنفسية التي يحقق بها الطفل حريته. يساعدنا فيجوتسكي، بدعم من سبينوزا الذي يلجأ إليه طوال عمله: إذ يسمح لنا بالتفكير في القوة العاطفية للتطور المفاهيمي للطفل، ووضع أسس علم نفس سبينوزية للتأثيرات، والتجارب الحية التي يمكن أن تصبح أكثر فأكثر حيوية وفائدة لمستقبل الطفل.

اللغة الإنجليزية (محمد الشيخ)

طيران البومة
(ميراث هيجل للفلسفة المعاصرة)

المؤلف: تأليف جماعي **سنة النشر: 2021**
دار النشر: دي كرويتر

اشتهر هيجل بعبارته البديعة الملغزة: «فقط عند بداية الغسق تحلق بومة منيرفا». وبومة منيرفا كناية رومانية عن الحكمة؛ وذلك بما يعني أن الحكمة تأتي دائما متأخرة عند ذبول الحياة، فيكون لها بلغة هيجل: «أن ترسم لونا رماديا على لون رمادي». لكن، ماذا لو نحن عمدنا إلى تطبيق هذا القول على حكمة هيجل نفسها؟ هل، يا ترى، أدركتنا هي هذه الفلسفة بأن جاءت متأخرة عن عصرها؟ هو ذا التحدي الذي يحاول هذا الكتاب رفعه. فهو استقصاء في نصيبنا ـ نحن أبناء هذا الزمان ـ من تركة هيجل. إذ يعرض الكتاب ما يمكن أن يتحرر من طاقات محبوسة في قمقم هذه الفلسفة النسقية العظيمة؛ وذلك لكي يساعدنا على تسليط الضوء على زمننا هذا: الدور الذي يعزوه هيجل إلى المرأة في تشكيل المجتمع والأسرة، وأفق نظره الأنتربولوجي والنفساني، ومقاربته للطبيعة البشرية، وصلة المرض العقلي عنده بالآفة الاجتماعية، ودور اللاوعي، وأهمية التفاعلات الثقافية والدينية الجوانية.

إرنست سوزا يلاقي الفلسفة الصينية

المؤلف: تأليف جماعي **دار النشر: بلومسبوري أكاديميك**
تحت إشراف يونج هوانج **سنة النشر: 2022**

من توجهات فلسفة الأخلاق المعاصرة تلك الصلة التي باتت تنسجها مع مبحث المعرفة على الطريقة الأنجلوسكسونية (الإبستمولوجيا). ومن هنا تأسس مبحثا «الفضائل الإبستيمية» و«إبستمولوجيا الفضائل» واللذان من شأنهما النظر في «الفضائل» الفكرية والذهنية المتعلقة بممارسة العلم. ولعل أحد أشهر من خاضوا في هذا الشأن الفيلسوف الأمريكي إرنست سوزا (-1940) أحد أبرز مؤسسي مبحث إبستمولوجيا الفضائل. ويعد هذا الكتاب بمثابة تكريم لهذا الفيلسوف المعرفي، وأحد أبرز الفلاسفة الأنجلوسكسون، ومؤسس إبستمولوجيا الفضيلة المعاصر. وقد ائتلف مجمع من الباحثين من الفلسفة الغربية والصينية للنظر في التفاعلات الحادثة بين الفلسفتين في هذا المضمار. وتكمن أهمية هذا الكتاب في تسليط الضوء على التقليد الفلسفي الصيني في مجال الفضائل المعرفية والفكرية والإبستمولوجية. وأهم منها ردود إرنست سوزا نفسه على مداخلات الباحثين؛ بما يشي عن أهمية الحوار العابر للثقافات؛ وذلك كله في إطار مشروع الخروج من «الفلسفة الغربية» الأحادية» إلى «فلسفات العالم».

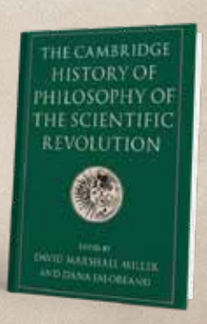

تاريخ كامبريدج لفلسفة الثورة العلمية

المؤلف: كتاب جماعي تحت إشراف ديفيد مارشال ميلر ودانا جالوبيانو - دار النشر: مطابع جامعة كامبريدج - سنة النشر: 2022

هذا كتاب فلسفي في تلاقي أمرين: أولا؛ الثورة العلمية التي حدثت عند مطلع عصر الحداثة. وهي الثورة التي لا زالت تحكم فهمنا الحالي للعالم الطبيعي. وثانيا؛ الثورة الفلسفية التي وضعت أسس الحداثة. وبين الثورتين تعالقات يسعى الكتاب إلى تسليط الضوء على خيوطها المتشابكة والمعقدة التي انتسجت انتساجا منذ أواخر القرن السادس عشر الميلادي حتى أواسط القرن الثامن عشر. وقد انتظمت فصول هذا الكتاب انتظاما لحل تشابكات الصلة بين الفلسفة، من جهة، والعلم الطبيعي وعلم الفلك والرياضيات والطب، من جهة أخرى. كما أنها تناولت التأثيرات الفكرية والمادية والمؤسسية التي خضع إليها مفكرو الثورة العلمية. وفي كل هذا لم يفقد مؤلفو الكتاب الخيط الناظم له، وإنما حاولوا تقديم خريطة منظرانية عامة للفلسفة والعلم في بواكير الحداثة، تحذوهم في ذلك آخر الاجتهادات في مضمار فلسفة المعرفة وفلسفة العلم وتاريخ العلوم والإبستمولوجيا.